اقرأ

الدكتور علي عبد الواحد وافي

الطوطمية

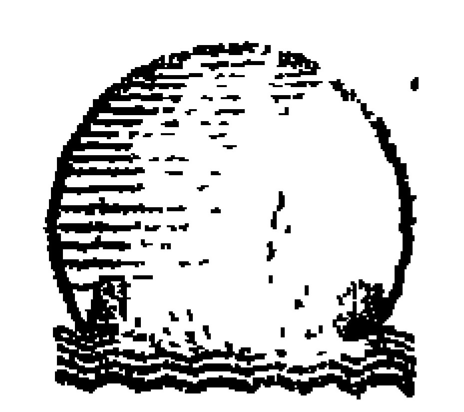
أشهر الديانات البدائية





دار المعارف بمصر

اهداءات ٢٠٠٠
ا.د.رشيد سالم الناضورى
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية



الطوطمية

أشهر الديانات البدائية

الدكتور علي عبد الواحد وافي

الطوطمية

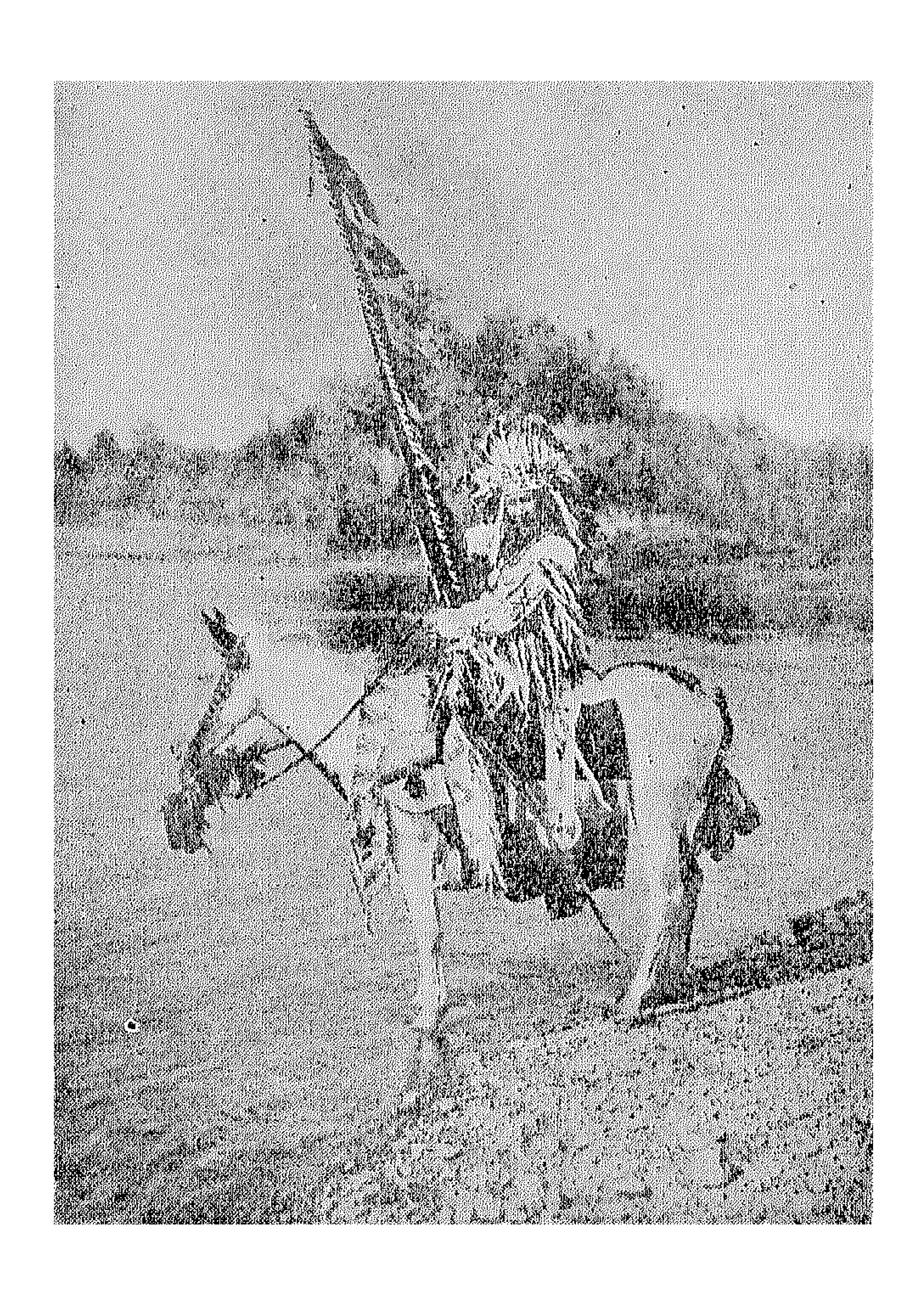
أشهر الديانات البدائية

اقرأ ١٩٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٩٤ – فبراير سنة ١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة



لوحة رقم ١
فارس من الهنود الحمر مزين بشاراته التوتمية

مقدمة

فى أصل الكلمة ومعناها الإجمالى
وتاريخ دراسة هذه العقيدة

تطلق كلمة « توتم Totem »[1] التى تنسب إليها العقيدة « التوتمية » أو « النظام التوتمى Totémisme » على كل أصل حيوانى أو نباتى تتخذه عشيرة ما رمزاً لها ، ولقباً لجميع أفرادها ، وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ، وتنزله وتنزل الأمور التى ترمز إليه منزلة التقديس . فإذا كان الذئب مثلا توتماً لعشيرة ما ، فمعنى ذلك أن هذه العشيرة تتخذ هذا الحيوان رمزاً لها يميزها عما عداها من العشائر ، ولقباً يحمله جميع

---

(١) جرت عادة كثير من المعربين أن يقلبوا التاء فى الكلمة الأعجمية طاء ، فيقولوا مثلا « ميطافيزيقا » بدلا من « ميتافيزيك » . وعلى هذه الطريقة كتب بعض الباحثين من قبلنا ، ومنهم جرجى زيدان وسلامة موسى ، كلمة « الطوطمية » وكلمة « الطوطم » بالطاء . وقد سرنا على طريقتهم فى عنوان الكتاب لاشتهار الكلمة بهذا الرسم . ولكننا آثرنا فيما عدا العنوان الخارجى كتابتها بالتاء ، لأن التاء أخف فى النطق وفى الرسم من الطاء ، ولأنه لا ضرورة لقلب التاء إلى حرف آخر مع وجودها فى الرسم العربى .

أفرادها للدلالة على انتمائهم إليه ، وتعتقد أنها هي وفصيلة الذئاب من طبيعة واحدة ، أي أنه يتألف من أفرادها ومن أفراد هذه الفصيلة الحيوانية وحدة اجتماعية أو ما يشبه الأسرة الواحدة ، وتنزل هذا الحيوان وما يرمز إليه منزلة التقديس ، وتقوم جميع عقائدها وطقوسها الدينية على أساس من هذا التقديس .

وقد عثر الباحثون في أول الأمر على مظاهر كثيرة لهذه العقيدة بين السكان الأصليين لأمريكا وخاصة بين الهنود الحمر الذين يتألف منهم معظم السكان الأصليين لأمريكا الشمالية . ومن ثم أطلق على الأصل الحيواني أو النباتي الذي تقوم عليه هذه العقيدة اللفظُ نفسه الذي كان مستخدماً في هذا المعنى لدى بعض عشائر الهنود الحمر ، وهو لفظ « توتم » totem .

وأول كتاب ظهرت فيه هذه الكلمة كتاب إنجليزي ألفه جون لنج John Long الذي كان يعمل ترجماناً في «شركة الهند» Compagnie des Indes ، وطبع في لندن سنة ١٧٩١ تحت عنوان « أسفار ورحلات لترجمان هندي » .

Voyages and Travels of an Indian Interpreter . وقد تضمن هذا الكتاب إشارات مقتضبة إلى هذه الديانة وما تشتمل

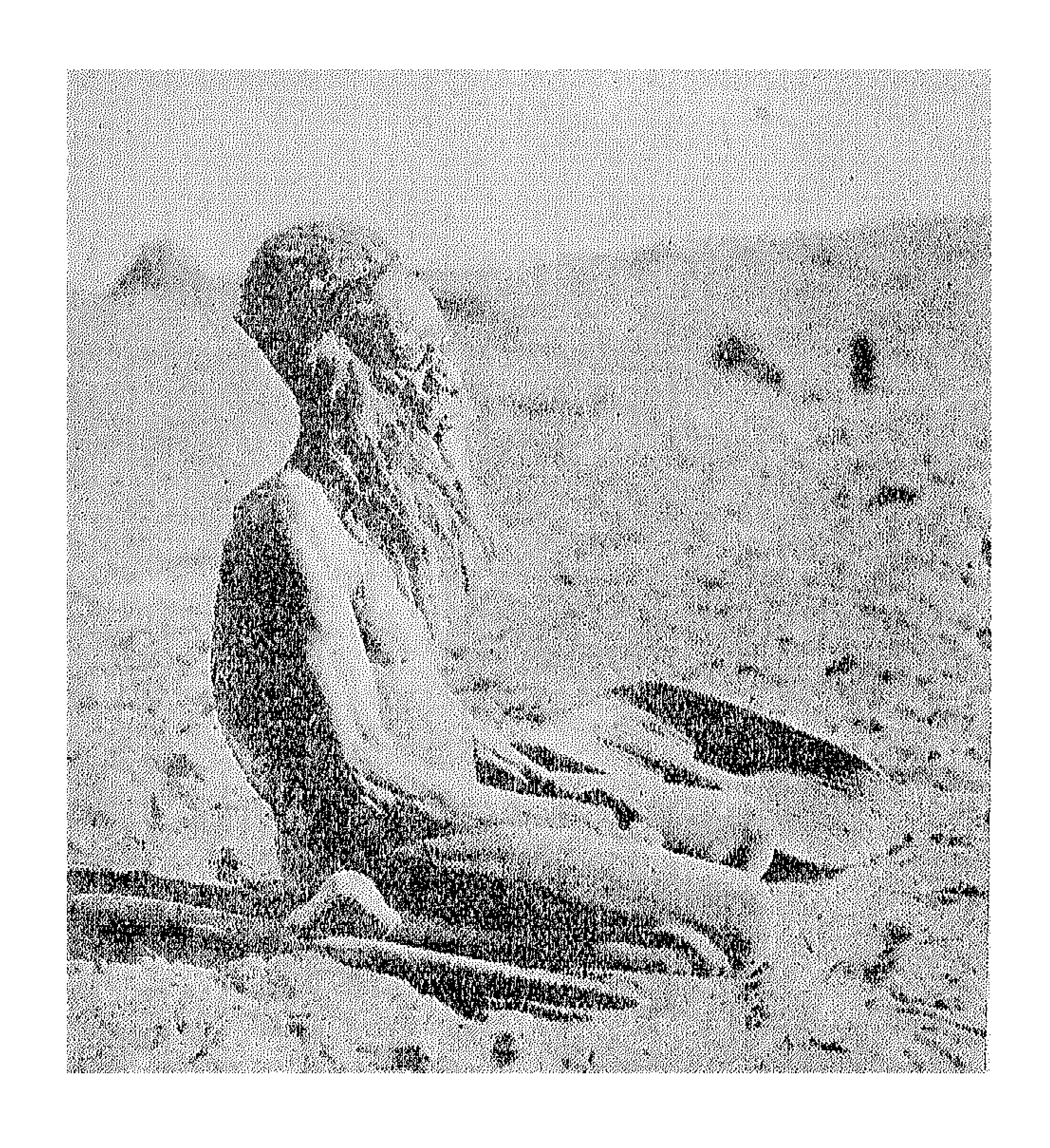
عليه من عقائد وشعائر وما كان لها من أثر بين عشائر الهنود الحمر .

ومن ذلك الحين عكف العلماء على دراسته هذه الديانة وتحليل عناصرها والبحث عما تقوم عليه من أصول .

وقد ظهر لهم أن هذه الديانة نفسها منتشرة بين السكان الأصليين لأستراليا ، وأن لها رواسب كثيرة لدى شعوب الساميين فى شمال أفريقيا ووسطها وفى مدغشقر وجزر الملايو وپولينزيا وأندونيسيا والفليبيين والهند الصينية والصين والهند وفى مواطن أخرى كثيرة فى الدنيا القديمة ، وأن لها أشباهاً ونظائر فى كثير من ديانات العالم القديم نفسها وخاصة ديانات اليونان والرومان ، وفى كثير من عادات شعوبه وتقاليدها[1] .

---

(١) انظر أهم البحوث فى الديانة التوتمية فى قائمة المراجع المثبتة فى آخر هذا الكتاب .



لوحة رقم ٢
صورة طبيب - ساحر من قبيلة الأرونتا بأستراليا Arunta

الفصل الأول
وصف النظام التوتمي وبيان عناصره وآثاره

١
أنواع التوتم ومبلغ تقديسها

تتألف معظم التواتم من فصائل حيوانية ونباتية ، كفصائل الذئب والثعلب والنمر والكنغر والحمام والطاووس ، وكفصائل شجر البلوط والموز والمطاط . . . وهلم جرا . والتواتم الحيوانية أكثر عدداً وأوسع انتشار من التواتم النباتية . وقليل من التواتم ما يتمثل فى جماد أو نجم أو مظهر من مظاهر الطبيعة . فمن بين التواتم الخمسمائة التى كشف عنها هويت Howitt عند العشائر الجنوبية من سكان أستراليا يرجع أربعمائة وستون منها إلى تواتم جيوانية ونباتية وأربعون فقط إلى تواتم غير حية يتمثل معظمها فى مظاهر الجو والسماء والطبيعة كالشمس والقمر والكواكب والصيف والشتاء والخريف والسحاب والمطر والبرد والريح والنار والدخان والماء والبحار .

ويقصد من التوتم الحيوانى أو النباتى الفصيلة العامة التى ينتمى إليها الحيوان أو النبات لا فرد معين أو أفراد معينون من أفرادها . فحينما يكون توتم العشيرة الثعلب مثلا يكون المقصود فصيلة الثعلب على العموم لا ثعلباً معيناً أو ثعالب معينة من هذه الفصيلة . فالعشيرة فى هذه الحالة تعتقد أنها هى وفصيلة الثعلب من طبيعة واحدة ، أى أنه يتألف منها ومن هذه الفصيلة الحيوانية وحدة اجتماعية أو ما يشبه الأسرة الواحدة ، وتتخذ الثعلب رمزاً لها ، ولقباً لجميع أفرادها ، وتنزله منزلة التقديس .

وبجانب التوتم الخاص بالعشيرة يوجد التوتم العام للاتحاد الذى تنتمى إليه العشيرة Fraterie ، والاتحاد عبارة عن مجموعة من العشائر يعتقد أنها ترجع فى القديم إلى أصل واحد . فلكل عشيرة إذن توتمان : توتمها الخاص بها ؛ والتوتم الاتحادى العام الذى تشترك فيه مع عشائر اتحادها . وكما تقدس العشيرة توتمها الخاص بها تقدس كذلك توتمها الاتحادى العام .

ويبدو تقديسها هذا فى مظاهر كثيرة ، من أهمها أنه يحرم على جميع أفراد العشيرة أن يمسوا بسوء أى فرد من أفراد توتمها الخاص أو توتم اتحادها العام ، كما يحرم عليهم أن يأكلوا لحمه أو يدخلوا شيئاً من عناصره فى أجوافهم . ومخالفة

هذه القاعدة يعد فى نظر هذه العشائر من أكبر الجرائم ، ويعتقد أنها تؤدى فى صورة تلقائية إلى موت المجرم موتاً عاجلا أو بطيئاً ، أو إلى عذابه عذاباً أليماً دائماً فى جسمه ونفسه .

ويستثنى من هذه القواعد بعض حالات حددتها التقاليد . فمن ذلك أنه يباح لأفراد العشيرة فى بعض المناسبات الدينية أن يطعموا من توتمهم الخاص أو توتم اتحادهم العام على أنه طعام ربانى مقدس ، كما يباح ذلك أيضاً للواحد منهم إذا اضطر فى مخمصة ولم يجد أمامه إلا توتم عشيرته أو توتم اتحاده ، كما يباح ذلك على الإطلاق إذا كان التوتم لا تمكن الحياة بدونه كالماء وما إليه . ويباح قتل التوتم فى حالة الدفاع المشروع عن النفس واتقاء الأذى وخاصة إذا كان التوتم مفترساً أو مؤذياً بطبعه كالنمر والثعبان وما إليهما .

ولكن جميع الحالات التى يباح فيها الاعتداء على التوتم أو تناول شىء من عناصره مقيدة فى طرق تنفيذها بقيود وطقوس كثيرة تدل أوضح دلالة على أنها حالات استثنائية وعلى أن الأصل فى ذلك هو التحريم . ففى حالة الضرورة مثلا لا يباح للفرد أن يتناول من التوتم أكثر من القدر الذى يسد رمقه وينقذه من الهلاك . ولا يجوز له فى هذه الحالة عند كثير

من العشائر ذبح الحيوان أو قلع النبات التوتمي بنفسه ، بل يجب أن يتولى ذلك عنه فرد من اتحاد آخر غير الاتحاد الذي تنتمي إليه عشيرته ، إلا إذا تعذر وجود هذا الوسيط في موطن قفر ، ولم يكن ثمة سبيل لإنقاذ حياته إلا أن يتولى ذلك بنفسه. وتطبق هذه القاعدة حتى على التواتم التي تتوقف الحياة عليها. ففي العشائر التي تتخذ الماء توتماً لها أو لا تحادها لا يصح لفرد من أفرادها أن يخرج الماء بنفسه من البئر أو النهر ، بل يجب أن يتولى ذلك عنه فرد من اتحاد آخر غير الاتحاد الذي تنتمي إليه عشيرته. وفي حالة الدفاع المشروع عن النفس واتقاء الأذى لا يجوز قتل التوتم إلا إذا تقطعت بالفرد الأسباب ولم يجد أمامه سبيلا آخر غير ذلك. فالعشائر التي تتخذ تواتمها من الحشرات المؤذية مثلا لا يباح للفرد أكثر من طردها عنه ، ما دام طردها يقيه شرها ويدفع عنه أذاها. وفي كثير من العشائر يتحتم على الفرد في مثل هذه الضرورات أن يستغفر من ذنبه ويندم على ما فعل ، وألا يدخر وسعاً في تخفيف العذاب عن التوتم في حالة قتله أو طرده.

غير أن طائفة من العشائر قد أدخلت على نظمها الأصيلة في هذا الصدد بعض التيسير والتخفيف. فأباح بعضها أكل

التوتم بمقادير خاصة فى غير حالات الضرورة ؛ وأباح بعضها ذلك على الإطلاق للشيوخ الذين بلغوا منزلة خاصة فى سلم الوظائف الدينية ولطبقة السحرة والكهان (انظر صوراً لهؤلاء فى لوحتى ٢ ، ٣ بصفحتى ١١ ، ١٩) ؛ وأجاز بعضها أكل أجزاء خاصة من التوتم يعتقد أنها أقل قدسية من غيرها ؛ وجعل بعضها التحريم مقصوراً على التوتم بعد بلوغه سناً معينة ، وذلك لاعتقادها أن قدسيته تظل ناقصة ما دام لم يصل بعد إلى هذه السن .

ولا يطبق هذا الحظر ولا هذا التقييد إلا حيال التوتم الخاص بالعشيرة التى ينتمى إليها الفرد والتوتم العام للاتحاد الذى تنتمى إليه عشيرته كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق . أما التواتم الخاصة بالعشائر التى تنضوى مع عشيرته تحت اتحاد واحد فيحل له أن يطعم منها على أن يتولى الحصول عليها وإعدادها وتقديمها وسيط من اتحاد آخر غير اتحاد عشيرته . وأما التواتم الخاصة بالعشائر الخارجة عن اتحاده والتواتم العامة لاتحادات أخرى غير اتحاد عشيرته فيباح له أن يطعم منها ويسلك حيالها أى مسلك يطيب له بدون قيد ولا شرط .

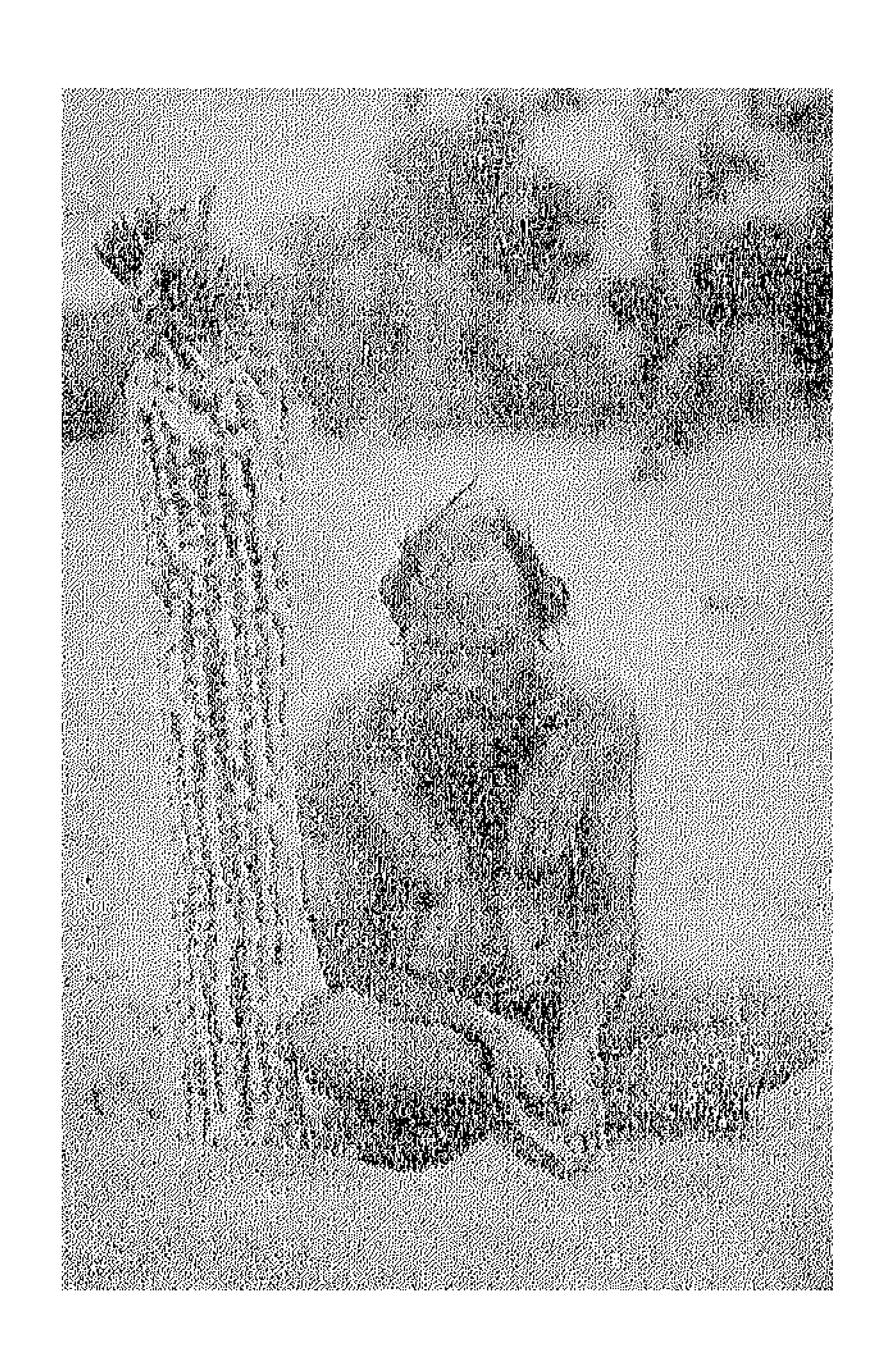
ومن مظاهر تقديس التوتم كذلك ما تسير عليه بعض

العشائر من التزام أفرادها لطقوس الحداد عند موت فرد من أفراد فصيلة التوتم الذى تنتمى إليه أو عند العثور على جثته ، ومن قيامهم بدفنه فى حفل رهيب وبطقوس دينية خاصة .

ومن مظاهر تقديسه كذلك أنه يستمد منه العون فى مختلف المناسبات ، وخاصة فى الحروب ، ويعلق به فى هذه الشئون كثير من معتقدات التفاؤل والتطير عند هذه الشعوب . فمن ذلك ما يعتقده السموائيين Samoans (سكان أرخبيل ساموا بجوار زيلنده الجديدة) من أنه إذ اصادف الجيش فى تحركه الطائر التوتمى وهو يطير أمام كتائبه كان ذلك دليلاً على أنه سيكتب له النصر فى معركته القادمة ، وإن صادفه وهو يطير فى اتجاه مضاد لاتجاهه كان ذلك آية على أنه سيكتب عليه الخذلان إن أصر على خوض القتال ، ونصيحة له بالتراجع . ويذكرنا هذا بما كان يسميه عرب الجاهلية « زجر الطير » ، إذ كانوا يرون فى اتجاهات الطيور أمارات نحس أو بشائر ظفر ونجاح . وفى هذا يقول شاعرهم يصف مبلغ تسامحه مع قومه وصبره على أذاهم ومقابلته سيئاتهم بالحسنات :

وإن زجروا طيراً بنحس تمرّ بى

زجرت لهم طيراً تمرّ بهم سعـــدا



لوحة رقم ٣

صورة لرئيس دينى تقام الطقوس الدينية تحت زعامته وإشرافه ، وبجانبه مجموعة العصى المقدسة التى ترمز إلى التوتم

٢
رموز التوتم ومبلغ تقديسها

« الشورنجا » و « الواننجا » و « النورطنجا »

هذا ، وترمز كل عشيرة توتمية إلى توتمها برمز خاص تصطلح عليه . ويجيء هذا الرمز على عدة وجوه :

فأحياناً يكون عبارة عن صورة التوتم نفسه مرسوماً أو مجسما . ويكثر هذا النوع من الرموز وتدق أشكاله فى العشائر التى ارتقى لديها الذوق الفنى وتقدمت فى ميادين الرسم والتصوير كعشائر الهنود الحمر بأمريكا(انظر اللوحة رقم ٤ بصفحة ٢٩) .

وأحياناً يكون الرمز عبارة عن أشكال هندسية أو مجموعة خطوط ليس فيها شيء من صورة التوتم ، وإنما يصطلح اصطلاحاً على اتخاذها رمزاً له . ويكثر هذا النوع من الرموز فى العشائر المتأخرة فى ميادين الرسم والتصوير ، كعشائر السكان الأصليين لأستراليا . (انظر لوحة ٥ بصفحة ٣٥) .

وقد تستخدم بعض أجزاء الحيوان أو النبات نفسه للرمز إلى التوتم . ففى بعض العشائر يرمز إلى التوتم بجلد الحيوان ؛

وفى بعضها يدبغ الجلد ويحشى حتى يمثل الحيوان واقفاً ، ويتخذ ذلك رمزاً للتوتم .

وأحياناً يرمز إليه بتشكيل شعر الرأس أو بعض أجزاء الجسم فى صورة تشبه صورته أو صورة بعض أجزائه . ففى بعض العشائر يحلق الأفراد رءوسهم بطريقة ترسم من الشعر صورة التوتم أو صورة بعض أجزائه فى شكل بارز . وفى بعض العشائر التى تتخذ السحاب أو المطر توتماً لها يخلع للفرد ثناياه عند بلوغه مرحلة المراهقة أو فى أية مرحلة أخرى فيبدو تجويف فكه المظلم وهو محاط بأسنان بيضاء كأنه صيِّبٌ مظلم يتساقط منه مطر أبيض . (انظر لوحة ٧ بصفحة ٤٣) .

وأحياناً يرمز إلى التوتم بتشكيل الملابس أو الدروع أو أدوات الحرب فى صورة تشبه صورته .

وعند كثير من عشائر الشمال الغربى بأمريكا الشمالية وغيرهم يرمز إلى التوتم برسمه على أجسام الأفراد بطريقة الوشم (انظر لوحة رقم ٨ بصفحة ٥١) .

وفى كثير من مناسبات الرقص الدينى والأعياد ومجتمعات المآتم يرمز أفراد العشيرة إلى توتمهم بأن يتنكروا هم أنفسهم فى صورة تشبه صورته ، فيلبسوا جلده أو ريشه ، ويخفوا وجوههم

بقناع يشبه وجهه ، ويحاكوه فى مشيته وحركاته وأصواته (انظر صوراً لبعض أنواع الرقص الدينى المصحوب بهذا الوضع التنكرى فى لوحتى ٩ ، ١٠ بصفحتى ٥٩ ، ٦٧ وانظر صوراً لبعض أنواع الأقنعة المستخدمة فى حفلات الرقص فى لوحتى ١١ ، ١٢ بصفحتى ٧٣ ، ٧٤) .

وقد يرمز إلى التوتم بعصا أو بمجموعة من العصى بعد أن تضاف إليها مواد أخرى وتجرى عليها بعض عمليات وطقوس وترسم عليها أشكال خاصة . (انظر لوحات ٣ ، ١٣ ، ١٤ بصفحات ١٩ ، ٧٩ ، ٨٠) .

ومن هذا القبيل ثلاثة موز توتمية هامة مستخدمة لدى كثير من العشائر الأسترالية يسمونها « الشورنجا » و « الواننجا » و « النورطنجا » Churinga, Waninga, Nurtunja

أما « الشورنجا » فتتمثل فى عصا أو قطعة خشب مثقوبة فى نهايتها ، ويجرى فى ثقبها خيط مجدول من شعر إنسان .

وأما «الواننجا» فتتمثل فى عصا طويلة تخترقها عرضاً عصا أخرى واحدة أو عصوان اثنتان فى صورة تمثل شكل الصليب ، وتوصل نهايتا العصا الأفقية أو نهايات العصوين الأفقيتين بنهايتى العصا الرأسية بخيوط مجدولة من شعر آدمى أو حيوان .

وأما « النورطنجا » فتتمثل فى عصا طويلة أو عدة عصى مربوطة فى ضغث واحد ويوضع فوقها أعشاب يابسة ، ويلف حول الأعشاب خيوط مجدولة من شعر آدمى ، ويصنع من شعر بعض الحيوانات أو زغب بعض الطيور حلقة تثبت فى رأس هذه العصا أو عدة ضفائر تتدلى من رأسها إلى أسفلها ، وتتزين قمتها بخصلة من ريش النسور .

* * *

وكما تشير هذه الرموز إلى توتم العشيرة تشير إلى العشيرة نفسها ، كما ترمز فى عصرنا الحاضر صورة الدب إلى روسيا وصورة الديك إلى فرنسا . وبذلك تمتاز كل عشيرة توتمية ويمتاز ما تملكه وما يتصل بها عن جميع ما يخرج عن نطاقها . ومن ثم نرى الرمز التوتمى للعشيرة مثبتاً على أجسام أفرادها وملابسهم وأغطية رءوسهم وأسلحتهم وخيامهم ومنازلهم وتوابيت موتاهم وقبورهم وما تملكه من حيوان ومتاع (انظر لوحتى ١ ، ٦ بصفحتى ٥ ، ٤١) .

وتنزل كل عشيرة الرمز الخاص بتوتمها منزلة التقديس فى مختلف طقوسها وشعائرها الدينية .

ومن أكثر هذه الرموز تقديساً واستخداماً فى الطقوس

والشعائر الدينية « الشورنجا » و « الوانجا » و « النورطنجا » .

فقد كان يحرم على كل فرد غير معمد ، أى غير ملتحق بالمجمع الدينى للعشيرة Non-initié لمسها ، بل كان يحرم عليه مجرد النظر إليها إلا عن بعد وفى بعض المناسبات . فيحرم هذا على جنس النساء على الإطلاق ، لأن النساء لا يجوز تعميدهن ، كما يحرم على من لم يتم بعد تعميده وإلحاقه بهذا المجمع من الذكور . وتحفظ هذه الرموز فى مخابئ خاصة بعيدة عن الطرقات . وتعتبر هذه المخابئ وما يحيط بها مكاناً مقدساً لا يسمح بالطواف فيه ولا بالقرب منه إلا لمن تم تعميدهم وإلحاقهم بالمجمع الدينى les initiés . كما يعتبر حرماً آمناً لا يرتكب فيه منكر ولا يصاب الملتجئ إليه بسوء . وكثيراً ما يشار إلى حدود هذا الحرم بعلامات مادية تتمثل فى قطع الأحجار عند بعض العشائر . ولا يسمح بإخراج هذه الرموز من مخابئها إلا فى مناسبات دينية وحربية خاصة ، أو فى حالة ما إذا قبلت العشيرة إعارتها مدة ما لعشيرة أخرى . فقد كان يجوز للعشائر أن تتقارض هذه الرموز لتستمد منها القوة والعون . وفى حالة إعارتها يقتضى إخراجها من مخابئها عدة طقوس دينية معقدة ، وتخرج فى موكب حافل . ويعتقد

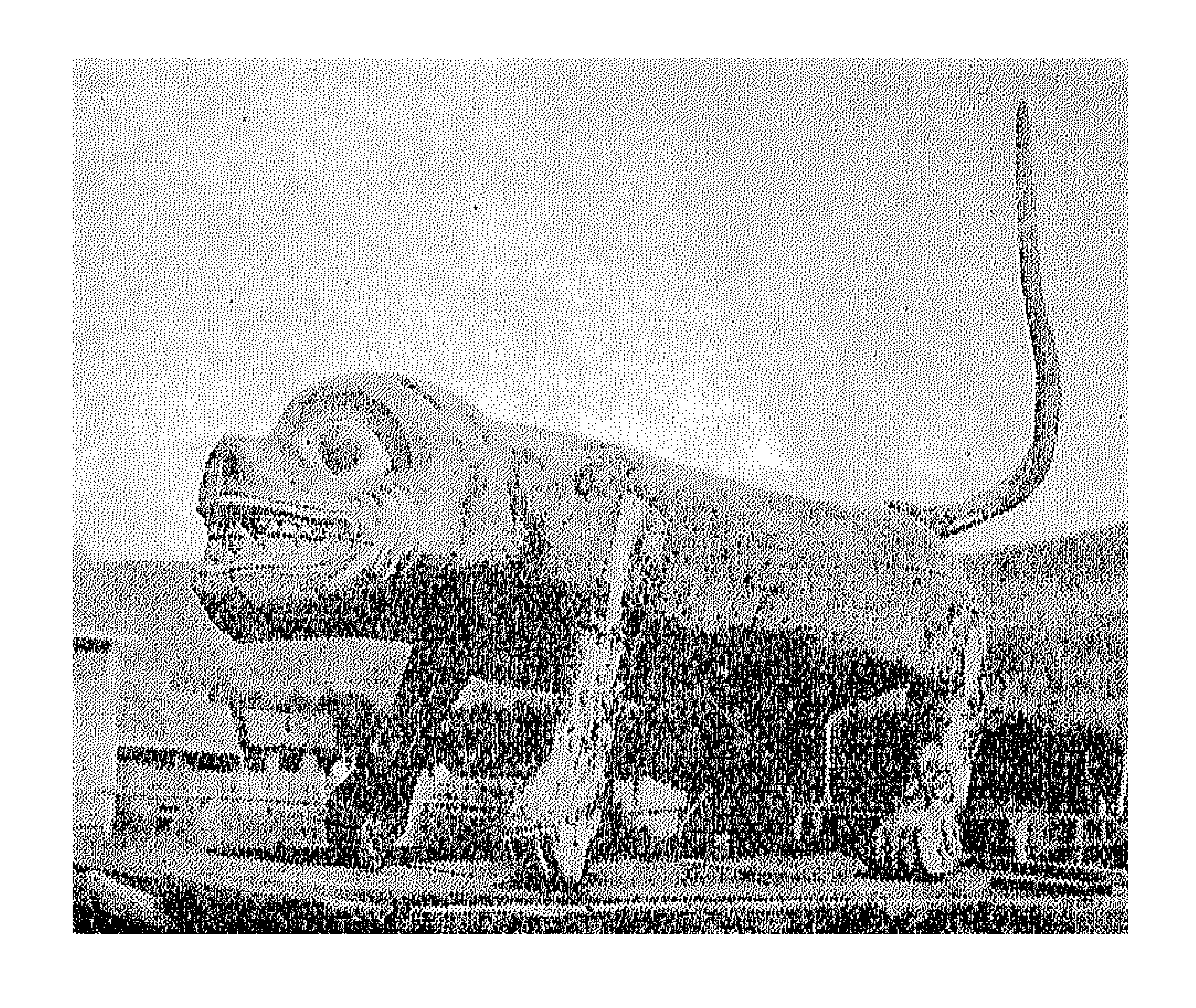
أن مصير العشيرة مقيد بمصير هذه الرموز . ومن ثم يعتبر فقدها أكبر كارثة يمكن أن تصاب بها العشيرة . وإذا فقدت العشيرة رمزاً منها ظل جميع أفرادها مده أسبوعين كاملين يبكون وينتحبون ويلطخون وجوههم وجسومهم بالطين . ولذلك لا تألو العشيرة جهداً فى حراستها وحمايتها أن تمتد إليها يد بسوء . ويقوم على حراستها سدنة أقوياء تختارهم العشيرة من بين رجالها الممتازين . وتعتقد العشيرة أن لهذه الرموز خواص عجيبة وآثاراً بليغة فى كثير من شئون العالم الدنيوى . فمن ذلك مثلا أنه يعتقد أن مجرد لمس الشورنجا يشفى من جميع الأمراض والجروح ، وأن حملها ومسح الجسم بها يهب الفرد قوة خارقة ويبعث الرعب والهلع فى نفس عدوه فيكتب له النصر عليه مهما أوتى من مهارة وإقدام ؛ حتى إن المحارب إذا رأى خصمه يحمل « شورنجته » تخور قواه ويستسلم له ، لاعتقاده أنه لا جدوى من مقاومة خصم يحمل هذا الرمز الرهيب . ولذلك تدهن الشورنجا بالزيت ويمسح بها قادة الحرب على جسومهم قبل أن يخوضوا المعركة ليكتب لهم النصر وتدور الدائرة على أعدائهم . ويتوقف كثير من الطقوس والشعائر الدينية على هذه الرموز (انظر لوحة ٣ بصفحة ١٩) . ففى حفلة التعميد أى

الالتحاق بالمجمع الدينى initiation توضع النورطنجا أمام الملتحق فى أثناء تلاوة الأوراد وعمليات الالتحاق ، ولا يتم تعميده إلا باستلامه لها وتقبيلها . وفى بعض الحفلات الدينية تثبت « الواننجا » أو « النورطنجا » فى الأرض وتلتف حولها حلقات الذكر والرقص والغناء الدينى . وفى بعضها يمساك بخيط الشورنجا وتحرك فى الهواء بحركة دائرية سريعة حتى تنتشر بركتها فى سائر أنحاء المكان الذى سيقام فيه الحفل .

وغنى عن البيان أن هذه المظاهر من التقديس لا تتجه إلى هذه الأخشاب نفسها ، وإنما تتجه إلى ما ترمز إليه ، كما أن ما يبدو منا حيال علم بلادنا هو تقديس للوطن الذى يرمز إليه . غير أنه مما يستوقف النظر أن تقديس العشيرة لرموز توتمها أبلغ وأعمق من تقديسها للتوتم نفسه ، كما يبدو ذلك من شواهد كثيرة . فمن ذلك أن « الشورنجا » و « الواننجا » و « النورطنجا » لا يصح أن يلمسها أو ينظر إليها إلا المعمدون من الرجال كما سبق بيان ذلك ، على حين أن الحيوان أو النبات نفسه الذى تتخذه العشيرة توتماً لها يحلّ لكل فرد من أفرادها لمسه والنظر إليه ، بل يباح له أحياناً قتله وأكل لحمه كما تقدم .

ومن ذلك أيضاً أن المخابئ التى تحفظ فيها الرموز تعتبر مكاناً

مقدساً وحرماً آمناً كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق ؛ على حين أن مواطن التوتم نفسه وجحوره ومخابئه لا تحظى بشيء من هذا التقديس ، ومن ذلك أيضاً أن كثيراً من الطقوس الدينية والشعائر الهامة لا تتم إلا بوجود ما يرمز إلى التوتم ، ولا يصح أن تقام إلا حوله ؛ على حين أننا لا نجد لأفراد التوتم نفسها شأناً يذكر في الشعائر ولا في الطقوس .



لوحة رقم ٤

تمثال لكلب يمثل توتما فى منطقة كيتوانجا بكلومبيا البريطانية

Kitwanga (Colomd a Britanique)

٣
أفراد العشيرة التوتمية
ومشاركتهم للتوتم فى طبيعته

وأفراد العشيرة أنفسهم يعتقدون أنهم هم وتوتمهم من طبيعة واحدة ، أى أنه يتألف منهم ومن فصيلة التوتم الذى ينتمون إليه وحدة اجتماعية أو ما يشبه الأسرة الواحدة . ومن ثم يلقب كل منهم بالاسم الذى يطلق على توتم عشيرته ، كما يحمل كل منا لقب أسرته ، ويعتقد كل منهم أنه فرد من فصيلة هذا التوتم . فالعشيرة التى تتخذ الكنغر توتماً لها مثلا يلقب كل فرد من أفرادها بالاسم الذى يطلق فى لغتها على الكنغر ، ويعتقد أنه أحد أفراد هذه الفصيلة الحيوانية . ولكن هذا لا يجرده من طبيعته الإنسانية : فهو كنغر وإنسان فى آن واحد . وهذا الازدواج الغريب فى الطبيعة الذى ينبو عنه تفكيرنا لا ترى عقلياتهم غضاضة فى قبوله . فعقليات هذه الشعوب البدائية لا تخضع لمقولات تفكيرنا المنطقى الذى لا يسيغ اجتماع النقيضين ، بل تقبل أن يكون الشىء هو نفسه وشيئاً آخر فى

وقت واحد ، وتفهم الأشياء وفقاً لما سماه العلامة ليڤى برول « قانون الاشتراك Loi de la Participation » إن صح أن يسمى هذا قانوناً ، ومعناه اشتراك الأشياء مع أشياء أخرى فى طبيعتها وتداخل الحقائق بعضها فى بعض . ومن ثم أطلق ليڤى برول على عقلياتهم هذه أنها عقليات ما قبل المنطق prélogíque .[١] وقد تناقش سبنسر وجيلين مع أحد الأستراليين الذين ينتمون إلى عشيرة الكنغر فى هذا الموضوع ، وكان بأيديهما صورة فوتوغرافية كانا قد التقطاها للأسترالى ، فأشار الأسترالى إلى صورته وقال لهما ما معناه إن وضعى بالقياس إلى الكنغر كوضعى بالقياس إلى هذه الصورة ، فكلانا شىء واحد .

ولتبرير هذا الازدواج فى الطبيعة اخترعت لديهم أساطير كثيرة يرجع أهمها إلى طائفتين رئيسيتين . فأما إحداهما فتذهب إلى أن بعض أفراد التوتم الحيوانى أو النباتى قد تحولت إلى أناسىّ وأن من هؤلاء انحدرت العشيرة . وأما الأخرى فتذهب إلى عكس ذلك أى إلى أن أفراد التوتم هم الذين كانوا فى الأصل أناسىّ ثم تحول بعضهم إلى حيوان أو نبات وبقى بعضهم الآخر محتفظاً بصورته الإنسانية ، وأنه من القسم الأول

---

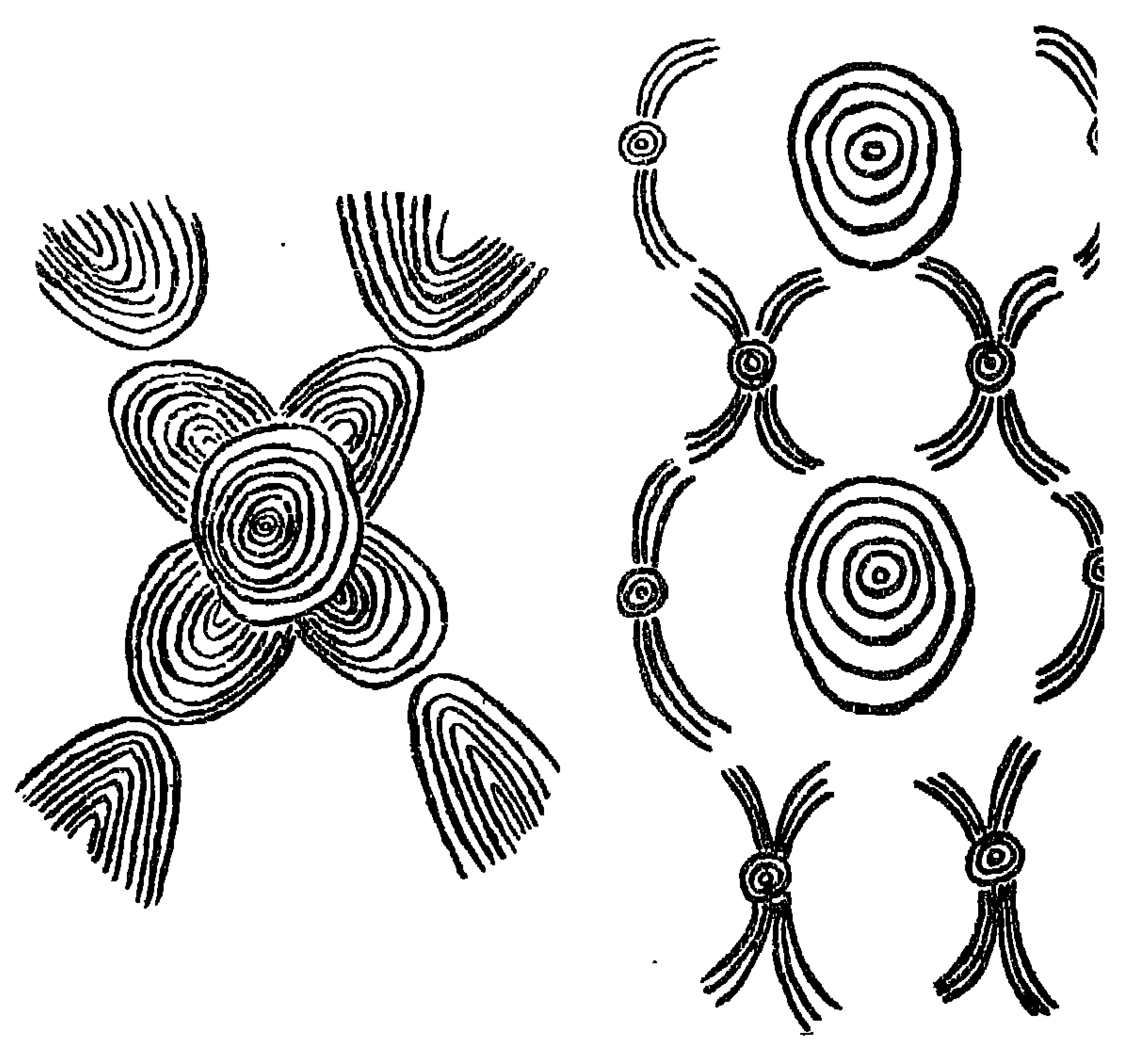
(١) انظر تفصيل ذلك فى مؤلفات ليڤى برول التى سنذكرها فى المراجع .

تتألف فصيلة التوتم ، ومن القسم الثانى تنحدر العشيرة .

وتختلف هذه الأساطير فيما بينها اختلافاً كبيراً فى تصوير هذا التحول وبيان تفاصيله . فيذهب بعضها إلى أن قوى قاهرة أو كائنات غريبة قديرة قد مسخت بعض أفراد الحيوان أو النبات إلى إنسان ، أو مسخت بعض أفراد الإنسان إلى حيوان أو نبات . وتذهب أساطير أخرى إلى أن هذا التحول قد حدث فى صورة تلقائية على النحو الذى تتحول به دودة القز إلى فراش . فبعض عشائر الإيروكوا Iroquois (ست قبائل من الهنود الحمر تقع منازلها فى الجنوب الشرقى من بحيرتى إريا وأنتاريو Erie, Ontario) التى تتخذ السلحفاة توتماً لها ، تذهب إلى أن بعض السلاحف قد اضطرت لظروف خاصة إلى مغادرة البحيرة التى كانت تعيش بجوارها ، وذهبت تبحث عن مساكن أخرى . وكانت إحداها مفرطة فى السمنة والضخامة ، فأجهدها السير الطويل فى حَمَارَّة القيظ ، وناء بها غلافها الثقيل ، فأخذت تزيحه عن جسمها قليلا قليلا حتى تمت استقامتها ، واستحالت إلى إنسان ؛ ومن هذا الإنسان انحدر جميع أفراد العشيرة . وتذهب عشائر أخرى إلى أن أحد أفراد الأناسى قد عاش أمداً طويلا بين أفراد فصيلة التوتم الحيوانى ،

فمن طول معاشرته لها اكتسبت فى صورة تلقائية طبيعتها وخواصها وطرقها فى المشى والغذاء وسائر شئون الحياة ؛ ثم أتيح له بعد ذلك أن يعود إلى أهله ، فأنكروه وظنوه فرداً من فصيلة هذا الحيوان ، وأطلقوا عليه اسمه ؛ ومن هذا الإنسان انحدر أفراد العشيرة ، فورثوا عنه هذه الطبيعة المزدوجة ، التى امتزجت فيها صفات الإنسان بصفات الحيوان . وتذهب بعض العشائر إلى أن أفرادها قد انحدروا من زواج حدث بين أب حيوانى وأم من بنى الإنسان ، أو العكس ، فجاءت طبيعتهم مزيجاً من طبيعة الحيوان والإنسان . فمن ذلك مثلا أن عشيرة أمريكية توتمها الغراب انتشرت لديها فى هذا الصدد أسطورة غريبة تتلخص فى أن غراباً قد التقط مرة قوقعة ، وأن هذه القوقعة لم تلبث أن استحالت إلى امرأة فاقترن بها الغراب ؛ ومن هذا القران انحدر أفراد العشيرة .

ويلاحظ فى هذا الصدد أن الأساطير الأسترالية فى جملتها أساطير ساذجة مضطربة ؛ على حين أن الأساطير السائدة لدى السكان الأصليين فى أمريكا أكثر تنقيحاً وحرصاً على الدقة وتسلسل الأفكار . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الأستراليين أشد بدائية وأبعد عن التطور الحضارى من الأمريكيين .



لوحة رقم ٥

رموز توتمية مستخدمة فى قبيلة الأرونتا Arunta بأستراليا

٤

أفراد العشيرة التوتمية

ومشاركتهم للتوتم فى قدسيته

ولما كان أفراد العشيرة مشتركين مع توتمهم فى طبيعته ، فهم كذلك يشتركون معه فى قدسيته . فكل واحد منهم كان ينظر إليه على أنه متحمل فى صورة ما شيئاً من قدسية التوتم الذى تنتمى إليه عشيرته . وهذه القدسية منتشرة فى جميع أجزاء الجسم وعناصره . ولكنها أظهر ما يكون ، فى نظر هذه العشائر ، فى دم الإنسان وشعره . ومن ثم كانت الدماء والشعور من أكثر عناصر الإنسان استخداماً فى الطقوس والشعائر الدينية عند هذه العشائر . فكانوا يدهنون « الشورنجا » بالدم الإنسانى . وكانوا يرسمون رموزاً للتوتم على أرض أو مادة مبللة بدم فرد من أفراد العشيرة . وكانوا فى حفلات التعميد أو الالتحاق بالمجمع الدينى للعشيرة Initiation[1] يجرح الكبار أنفسهم ويبللون ، بما ينبثق من جروحهم من دماء ، جسم

(١) انظر معنى هذه الكلمة بصفحة ٢٥ .

الشاب الذى يريدون تعميده . وكانوا يحرمون على النساء وعلى غير المعمدين من الرجال النظر إلى هذه الدماء ، كما كانوا يحرمون على هاتين الطائفتين النظر إلى رموز التوتم نفسها[1] .

وكانت عملية حلق الشعر تعتبر عملية دينية ذات بال ، وتحاط بكثير من الطقوس والمراسيم . وكان يجب على الشخص الذى تجرى عليه هذه العملية أن يولى وجهه شطر الجهة التى تعتقد عشيرته أنها مقر الأصول الأولى لتوتمها ، كما يولى المسلم مثلا وجهه شطر البيت الحرام فى أثناء صلاته . وكان يقص شعر المتوفى منهم ويحفظ فى مكان قصىّ ، ويعتبر الشعر والمكان المحفوظ فيه مقدسين يحرم على النساء وغير المعمدين من الرجال النظر إلى واحد منهما أو الاقتراب منه ، كما كان يحرم عليهما النظر إلى رموز التوتم أو الاقتراب من المكان الذى تحفظ فيه .

وكما أن أجزاء جسم الإنسان ليست سواء فى مبلغ قدسيتها ، فإن أفراد العشيرة أنفسهم ليسوا سواء فى ذلك . فمبلغ القدسية فى الرجال يزيد كثيراً عن مبلغها فى النساء ؛

---

(١) انظر ص ٢٥ .

بل إن النساء ليعتبرن من بعض الوجوه مجردات من القدسية إذا قسن بالرجال . وغير المعمدين من الذكور يعتبرون مجردين من القدسية أو متحملين لها بالقوة لا بالفعل . وكبار العشيرة وشيوخها وسحرتها وأطباؤها وكهنتها يعتبرون أكثر قدسية من غيرهم ، حتى إنه ليباح لهم ما لا يباح لغيرهم حيال التوتم ورموزه كما تقدم بيان ذلك[1] (انظر بعض صور لهؤلاء فى لوحتى ٢ ، ٣ بصفحتى ١١ ، ١٩) .

٥

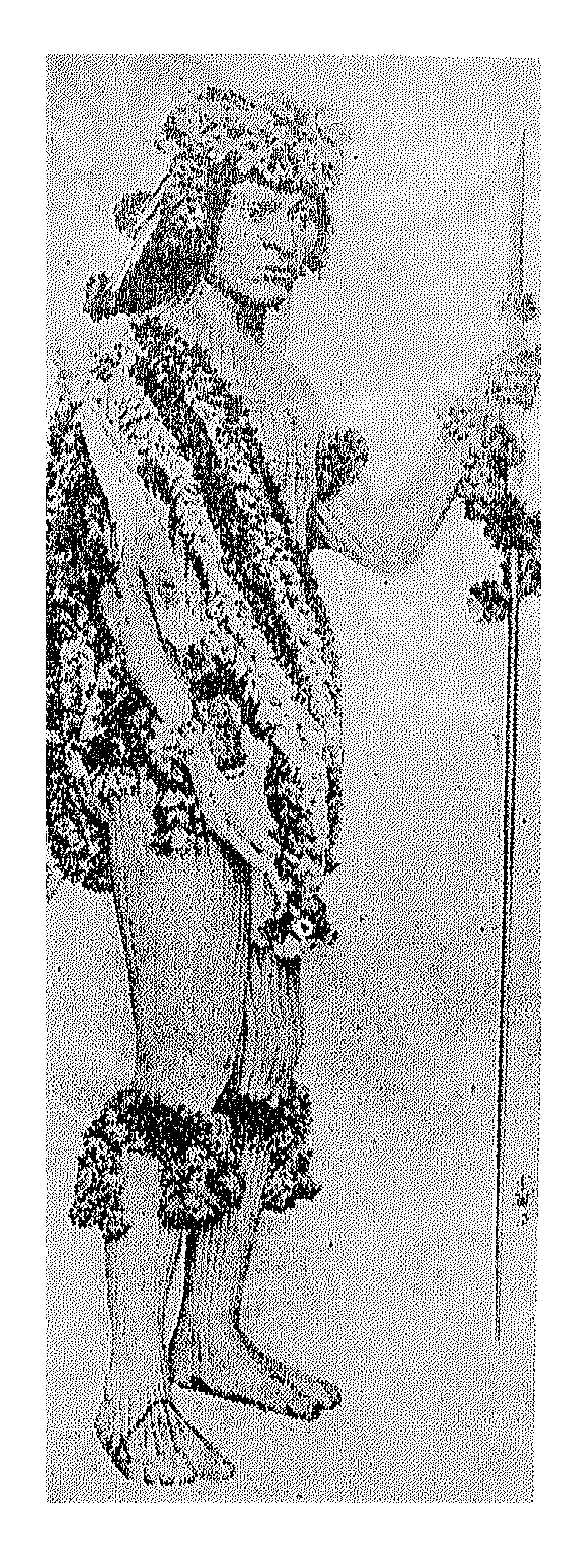
اختلاف التوتمية عن عبادة الحيوان والنبات

وبهذا تختلف التوتمية عن عبادة الحيوان والنبات : فأفراد العشيرة التوتمية لا يقفون حيال توتمهم كما يقف عابد الحيوان أو النبات حيال معبوده . فهذا يعد نفسه من طبيعة بشرية

---

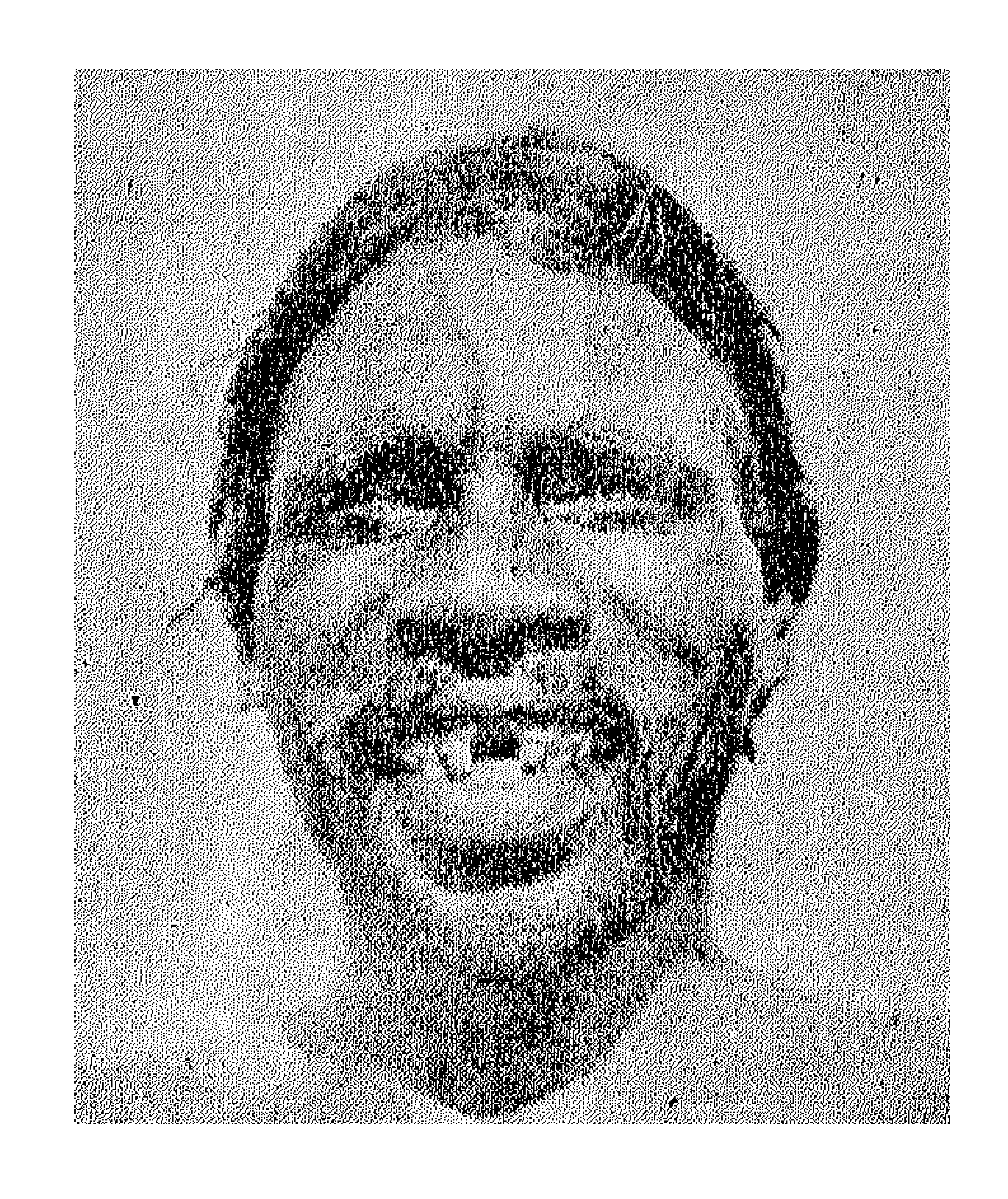
(١) انظر صفحات ١٧ ، ٢٥ ، ٢٦ .

تختلف اختلافاً جوهرياً عن طبيعة معبوده ، ويعتبر نفسه شيئاً حقيراً إذا قيس بالإله ؛ على حين أن النظام التوتمي يجعل الإنسان نفسه من طبيعة توتمه ويضفي عليه قدسية هذا التوتم . فالعلاقة بين أفراد العشيرة وفصيلة توتمها ليست علاقة عباد بآلهة ، بل علاقة أقرباء تربطهم بعضهم ببعض وشيجة الدم ولحمة النسب الوثيق .



لوحة رقم ٦

أحد الهنود الحمر من سكان الأمازون الأوسط وهو فى حلة العيد وعلى جسمه وثيابه وسلاحه رموز توتمه



لوحة رقم ٧

تمثل الصورة رجلا قد خلعت له ثناياه العليا - وهو من السكان الأصليين لجزيرة سنداى (جزيرة يوم الأحد Ile Sunday) .

٦

نطاق الأسرة وأساس القرابة
بحسب النظام التوتمى

كان نطاق الأسرة فى المجتمعات التوتمية واسعاً كل السعة ينتظم جميع أفراد العشيرة Le Clan . فلم يكن لدى هذه المجتمعات فرق بين أسرة وعشيرة . وكان جميع أفراد العشيرة الواحدة يرتبط بعضهم ببعض برابطة قرابة متحدة الدرجة . ولم تكن هذه الرابطة قائمة على صلات الدم ، كما هو الشأن فى الأمم الحديثة فى الوقت الحاضر ، وإنما كانت قائمة على أساس انتماء الأفراد لتوتم خاص واحد . فانتماء مجموعة من الأفراد لتوتم خاص واحد — يجعلهم أفراد أسرة واحدة ، ويربط بعضهم ببعض برابطة قرابة متحدة فى درجتها وقوتها بقطع النظر عن صلاتهم بعضهم ببعض من ناحية القرابة الطبيعية وشيجة الدم .

وتختلف هذه المجتمعات فيما بينها اختلافاً كبيراً فيما يتعلق بالأساس الذى يقوم عليه انتماء الفرد لتوتم معين . وترجع أهم النظم المتبعة فى هذا الصدد إلى ثلاثة نظم :

١ ـ النظام الأول هو ما يسمى « بالنظام الأمى» :

Matriarcat, Régime matriarcal

وهو الذى يعتمد محور القرابة فيه على الأم وحدها . فالولد يلتحق بأمه وأسرة أمه ، ويحمل لقبها وتوتمها ؛ وأما أبوه وأفراد أسرة أبيه فيعتبرون أجانب عنه لا تربطه بهم أية رابطة من روابط القرابة ، ولا يشعر نحوهم كما لا يشعرون نحوه بأية عاطفة عائلية . بل كانت توجب عليه التقاليد قتالهم إذا اعتدى أحدهم على أفراد أسرته ولو كان المعتدى أباه نفسه .

وهذا النظام هو الذى كان سائداً عند معظم العشائر الأسترالية . فقد كان الولد لديهم يتبع توتم أمه لا توتم أبيه ، فينتمى إلى عشيرتها لا إلى عشيرته . وقد احتفظت العشائر الأخرى نفسها التى كانت تسير على منهج آخر بكثير من مظاهر هذا النظام فى صورة تدل على أنها كانت تسير عليه من قبل ، ثم انحرفت عنه بدون أن تستطيع التخلص من جميع رواسبه .

ولما كان نساء العشيرة بحسب نظام « الأجزجامى » (الزواج من خارج العشيرة الذى سنتكلم عنه فى الفقرة السابعة من هذا الفصل)، يتزوجن من رجال ينتمون إلى عشائر متعددة

ويسكنون مناطق مختلفة ، ولما كان أولادهن بمقتضى « النظام الأمى » ينتمون إلى توتم أمهاتهن وعشيرتهن ويؤلفون معهن أسرة واحدة ، فقد ترتب على ذلك أن العشائر السائرة على هذا النظام كانت مبعثرة الأفراد لا يضمهم مكان واحد : يجمعهم ذلك الرباط العائلى الروحى الدينى ؛ بدون أن تنتظمهم وحدة جغرافية ، أو تؤلف بينهم رابطة إقليمية

٢ – والنظام الثانى يسمى بالنظام الأبوى :

Patriarcat, Régime patriarcal

وهو الذى يعتمد محور القرابة فيه على الأب وحده . فالولد يلتحق بأبيه وأسرة أبيه ؛ أما أمه وأفراد أسرتها فيعتبرون أجانب عنه لا تربطه بهم رابطة ما من روابط القرابة ، ولا يشعر نحوهم كما لا يشعرون نحوه بأية عاطفة عائلية . وقد سار على هذا النظام بعض العشائر البدائية بأستراليا وأمريكا . غير أن هذا النظام كان ممزوجاً عند العشائر التى كانت تسير عليه ببعض رواسب من « النظام الأمى » . فمن ذلك أنه كان يحرم على الولد فى هذه العشائر أن يطعم من توتم أمه أو يناله بأذى كما كان يحرم عليه ذلك حيال توتم أبيه . وهذا يدل ، كما أشرنا

إلى ذلك آنفاً ، على أن هذه العشائر كانت تسير فى المبدأ على النظام الأمى ، ثم انحرفت عنه إلى النظام الأبوى بدون أن تستطيع التخلص من جميع آثاره .

والعشائر التى كانت تسير على هذا النظام كان يجمع بين أفراد كل عشيرة منها ، إلى جانب الرباط العائلى والدينى ، رباط جغرافى ؛ لأنهم كانوا ، أصولهم وفروعهم ، يقيمون جميعاً فى منطقة واحدة لا يشاركهم فيها أجنبى إلا زوجاتهم اللائى كن ينتمين إلى عشائر أخرى .

٣ – والنظام الثالث يقوم محور القرابة فيه على شىء آخر غير انحدار الفرد من أب معين أو من أم معينة .

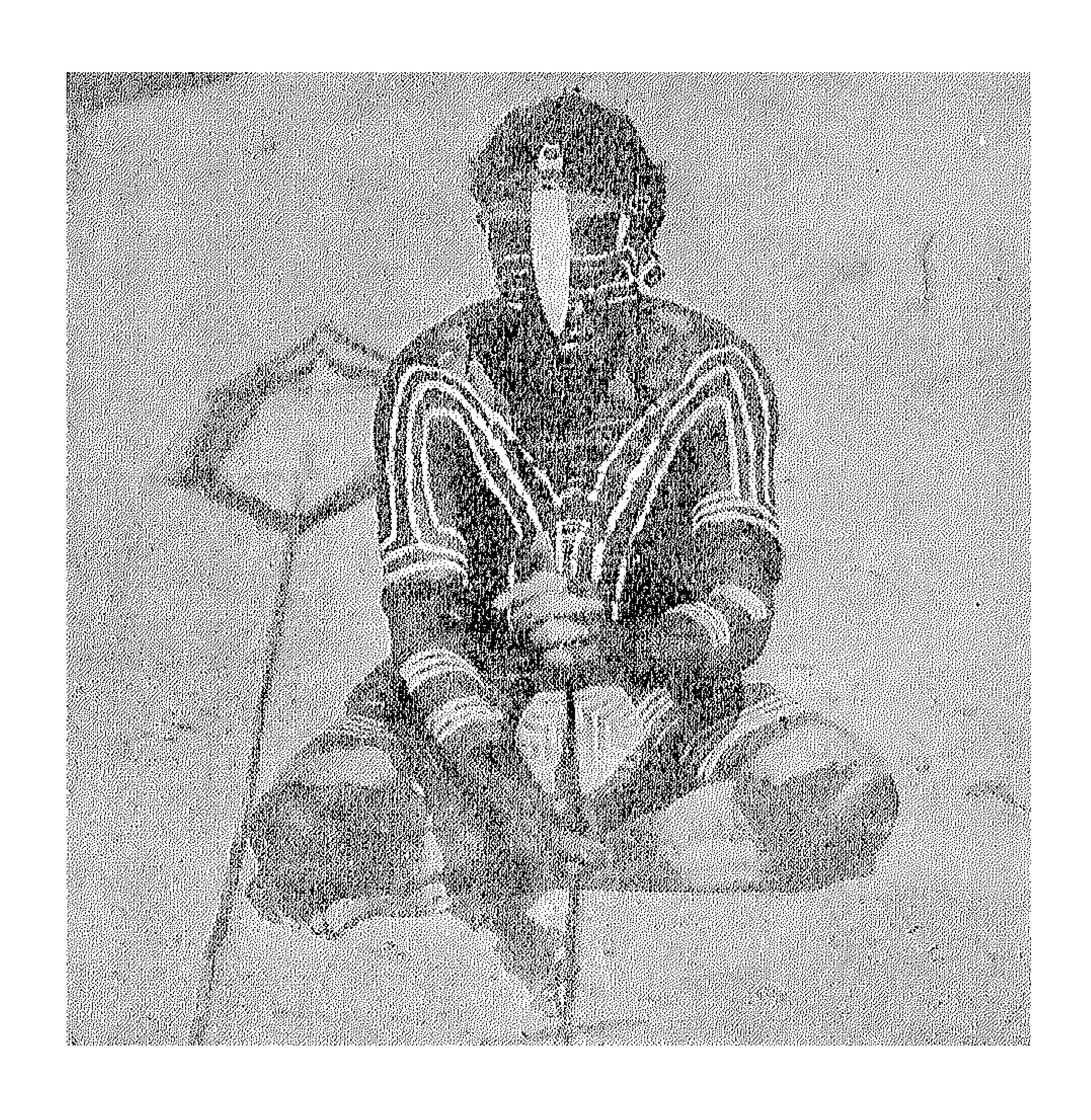
وقد سار على هذا النظام بعض العشائر الأسترالية كعشيرة الأرونتا وبعض عشائر أخرى بأستراليا الوسطى وكعشيرة البنكيين

Les Aruntas et d'autres tribus de l'Australie centrale, ainsi que les insulaires Banks.

فى هذه العشائر كان للأمكنة نفسها تواتمها الخاصة بها ، وكان الولد يتبع توتم المكان الذى أحست فيه الأم لأول مرة بتحركه فى بطنها وهو جنين . فإذا أحست ذلك فى مكان معروف أن توتمه الذئب مثلا ، أصبح الذئب توتماً

للولد ، والتحق نسبه بأفراد العشيرة التى تنتمى إلى هذا التوتم . وقد يتفق أن هذه العشيرة هى عشيرة أبيه ، وقد يتفق أنها عشيرة أمه ، كما يتفق أحياناً أنها عشيرة أخرى غير عشيرة أبيه أو أمه . غير أنه كان يتفق فى الغالب عند هذه العشائر أن يكون توتمه توتم أبيه . وذلك لأن تواتم الأمكنة كانت لا تختلف فى الغالب عن تواتم العشائر التى تسكنها ، ولأن الأم كانت تقيم مع زوجها فى المنطقة التى تسكنها عشيرته ، وكانت تنقلاتها لا تتجاوز فى الغالب حدود هذه المنطقة . فكان يندر أن تحس تحرك الجنين فى بطنها وهى فى منطقة أخرى غير هذه المنطقة .

وقد اشتهرت تسمية هذا النوع من التواتم « بالتوتم المحلى » Totem local (نسبة إلى المحل) أو « التوتم الحملى » totem conceptionel (نسبة إلى الحمل ، لأنه كان يتعين فى أثناء حمل الأم بالولد وتبعاً للمكان الذى حدث فيه الحمل نفسه . وهذه التسمية الأخيرة للعلامة فريزر Sir James Frazer) فأفراد العشيرة الواحدة ، بحسب هذا النظام لم تكن تجمعهم أية رابطة دموية أو جغرافية ، وانما كانت قرابتهم بعضهم لبعض قائمة على مجرد المصادفة والتواضع الاجتماعى .



لوحة رقم ٨

أحد سكان جزيرة سنداى (يوم الأحد Sunday) ومرسوم على جسمه بالوشم رموز توتمية وهو يحاول أن يورى زنده ويخرج ناره بحكه فى ثقب الزندة السفلى وذلك فى أثناء إحدى الحفلات المسماة بحفلات النار .

٧

المحارم فى الزواج بحسب النظام التوتمى

« الإجزوجامى » و « الأندوجامى »

Exogamie; Endogamie

كان الأساس الذى يقوم عليه تحريم زواج الرجل بامرأة يعتمد فى هذه المجتمعات على مبلغ قرابة الأفراد بعضهم لبعض وقرابة العشائر بعضها لبعض . وهذه القرابة كانت تعتمد بدورها على التواتم التى ينتمى إليها الأفراد وتنتمى إليها العشائر .

ومع اتفاق هذه الشعوب فى الأساس السابق ، فقد كانت تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً فى نظم تطبيقه . وأكثر هذه النظم شيوعاً لدى الأستراليين (الذين يعدون أكثر بدائية من الأمريكيين وتعتبر نظمهم أقرب إلى الجمود وأدنى الى تمثيل النظم الإنسانية الأولى) هو النظام الذى اشتهرت تسميته بنظام « الطبقات الزواجية الأربع » .

وبيان ذلك أن كل قبيلة tribu أسترالية كانت تنتظم

عدة عشائر clans لكل عشيرة منها توتمها الخاص الذى ينتسب اليه جميع أفرادها ، وتعتبر من أجله قرابتهم بعضهم لبعض من أقوى أنواع القرابة وأوثقها عروة .

والعشائر التى تنتظمها قبيلة واحدة كانت تندرج فى الغالب تحت اتحادين Phratcries ينتظم كل اتحاد منهما عدداً من هذه العشائر . ولكل اتحاد من هذين الاتحادين توتم عام تنتمى إليه جميع العشائر التى ينتظمها كما تقدمت الإشارة إلى ذلك[1] . فكان لكل عشيرة بحسب هذا النظام ، بجانب توتمها الخاص بها ، توتم عام تشترك فيه مع جميع العشائر الأخرى المنتمية إلى اتحادها . ومن أجل ذلك كانت العشائر المنتمية إلى اتحاد واحد تعتبر هى نفسها قريبة بعضها لبعض بحكم اشتراكها فى هذا التوتم العام. فنظام الاتحادات قد خلق إذن نوعاً ثانياً من القرابة ، وهى القرابة التى تربط أفراد العشائر المنتمية إلى اتحاد واحد بعضها ببعض . فكان هنالك إذن نوعان من القرابة : قرابة أفراد العشيرة بعضهم لبعض بحكم انتمائهم إلى

---

(١) انظر ص ١٤ هذا ، ولم يكن هذا النظام عاما فى جميع القبائل الأسترالية التى كانت تسير على نظام الاتحادات . ففى بعضها كانت عشائر القبيلة تندرج تحت اتحادين بدون أن يكون لكل اتحاد توتم عام .

توتم عشيرتهم الخاص ؛ وقرابة عشائر الاتحاد الواحد بعضها لبعض بحكم اشتراكها فى توتم هذا الاتحاد .

وكل اتحاد من هذين الاتحادين كان ينقسم إلى « طبقتين زواجيتين » Classcs matrimoniale يتوزع بينهما جميع أفراده . والقاعدة فى هذا التوزيع أن الولد يتبع طبقة زواجية غير الطبقة التى يتبعها أصله المتحد معه فى التوتم . فإذا كانت العشيرة تسير مثلا على النظام الأمى فى محور القرابة ، أى يلتحق الولد فيها بتوتم أمه ، فإن الولد يعتبر من عشيرة أمه ومن اتحادها ؛ ولكنه يلتحق بطبقة زواجية غير الطبقة الزواجية التى تنتمى إليها أمه فى نفس الاتحاد . وإذا كانت العشيرة تسير على النظام الأبوى فى محور القرابة ، أى يلتحق الولد فيها بتوتم أبيه ، فإن الولد يعتبر من عشيرة أبيه ومن اتحاده ؛ ولكنه يلتحق بطبقة زواجية غير الطبقة الزواجية التى ينتمى إليها أبوه فى نفس الاتحاد . وبذلك تلتحق الأصول بإحدى الطبقتين الزواجيتين فى الاتحاد ، ويلتحق فروعهم المباشرون المتفقون معهم فى التوتم بالطبقة الزواجية الأخرى من الاتحاد نفسه ، ويلتحق أولاد أولادهم (أى فروعهم من الدرجة الثانية) ، تطبيقاً للقاعدة السابقة ، بنفس الطبقة

الزواجية التى ينتمى إليها أجدادهم من الدرجة الأولى . . . وهلم جرا .

وأفراد كل طبقة زواجية فى أحد الاتحادين كانوا يعتبرون أقرباء بعضهم لبعض ، وكانوا يعتبرون كذلك أقرباء لأفراد الطبقة الزواجية الأخرى فى اتحادهم (وهاتان قد نشأتا عن اشتراكهم جميعاً فى توتم الاتحاد) ، وكانوا يعتبرون كذلك أقرباء لإحدى الطبقتين الزواجيتين اللتين ينتظمهما الاتحاد الآخر المقابل لاتحادهم . فنظام الطبقات الزواجية قدأحدث إذن نوعاً ثالثاً من القرابة غير النوعين اللذين أشرنا إليهما فيما سبق واللذين يعتمدان على نظام العشيرة ونظام الاتحادات ؛ وهذا النوع الثالث هو القرابة التى تربط كل طبقة زواجية من كلا الاتحادين بطبقة زواجية معينة من الاتحاد الآخر .

فإذا رمزنا إلى الطبقتين الزواجيتين اللتين يشتمل عليهما أحد الاتحادين بحرفى « ا » و « ب » ؛ وإلى الطبقتين الزواجيتين اللتين يشتمل عليهما الاتحاد الآخر بحرفى « ج » و « د » ، فإن أفراد طبقة « ا » مثلا يعتبرون أقرباء بعضهم لبعض وأقرباء لأفراد طبقة «ب» ، ويعتبرون كذلك أقرباء لأفراد طبقة معينة من طبقتى الاتحاد الآخر ، ولتكن طبقة « ج » مثلا .

والقاعدة في الزواج عندهم أنه يحرم على كل فرد أن يتزوج من فرد يمت له بصلة القرابة على الأسس السابقة أياً كانت درجة هذه القرابة وأياً كان سببها . وبمقتضى ذلك لا يحل لأفراد طبقة زواجية ما أن يتزوجوا من أفراد طبقتهم الخاصة ، ولا من أفراد الطبقة الأخرى فى اتحادهم ، ولا من أفراد الطبقة القريبة لهم فى الاتحاد الآخر . فأفراد طبقة « ا » فى مثالنا كان يحرم عليهم أن يتزوجوا من أفراد طبقتهم ومن أفراد طبقتى « ب » و « ج » ، ولا يحل لهم أن يتزوجوا إلا من أفراد طبقة « ء » .

فدائرة المحارم فى هذه الشعوب (ونعنى بالمحارم الأفراد الذين لا يحل بينهم التزاوج لقرابتهم بعضهم من بعض) كانت واسعة كل السعة . فلم يكن يحرم على الفرد أن يتزوج بآخر من عشيرته فحسب ، بل كان يحرم عليه كذلك أن يتزوج من أى فرد ينتمى إلى عشيرة أخرى من عشائر قبيلته ، ما عدا الذين ينتمون إلى طبقة زواجية معينة من الاتحاد المقابل لاتحاده .

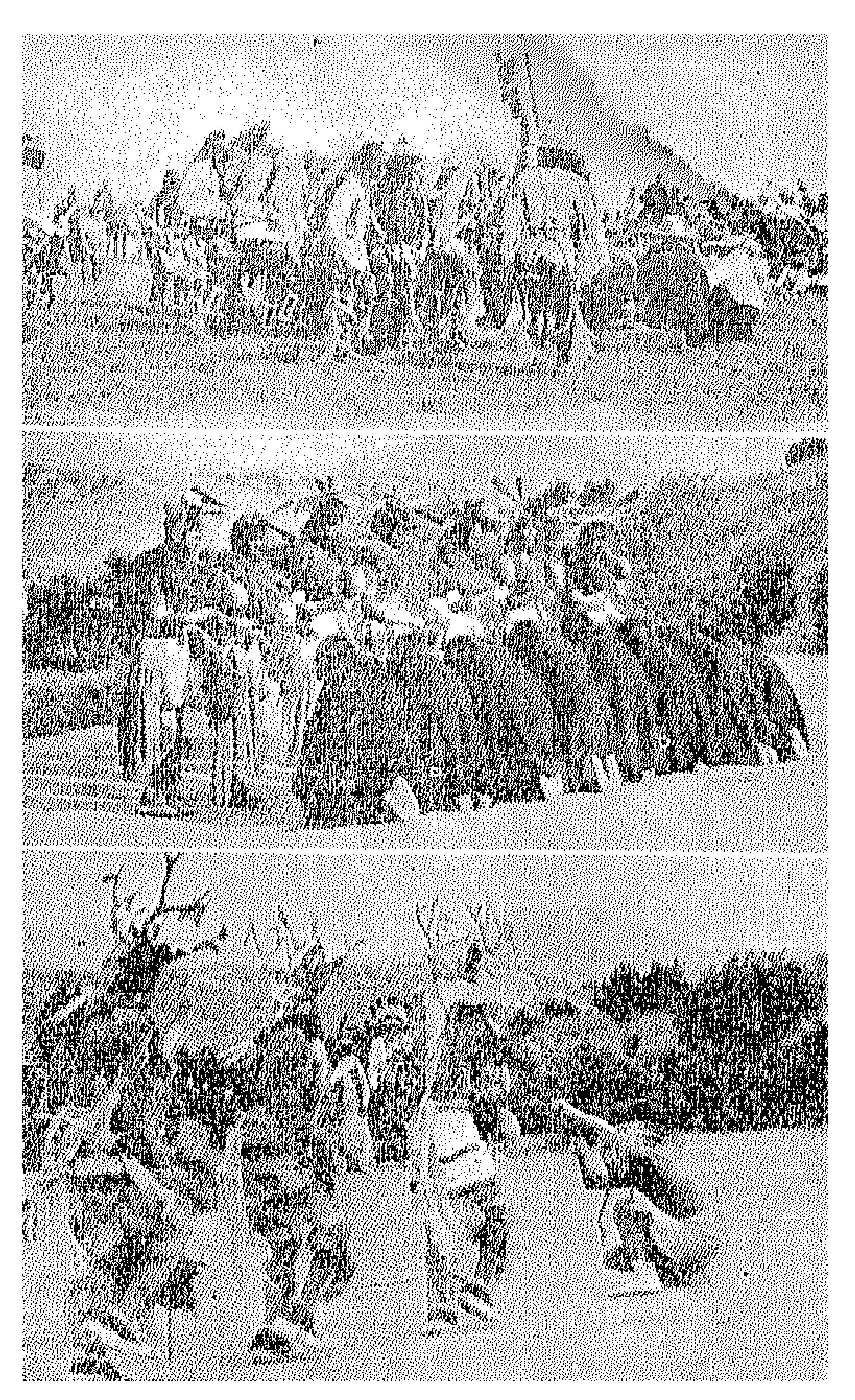
وقد جرت عادة علماء الاجتماع أن يطلقوا كلمة

« إجزوجامى » Exogamie (أى الزواج الخارجى)[1] على النظم التى لا يجوز للفرد بمقتضاها أن يتزوج إلا من خارج عشائره الأقربين ؛ وكلمة « أندوجامى » Endogamie (أى الزواج الداخلى[2]) على النظم التى يجوز للفرد بمقتضاها أن يتزوج من داخل الشعبة التى ينتمى إليها . وهذان النظامان كما رأينا كانا مطبقين معاً فى العشائر الأسترالية . فهذه العشائر كانت تسير على نظام « الإجزوجامى » (الزواج الخارجى) إذ كانت تحرم على الفرد الزواج من داخل عشائره الأقربين وهى العشائر المنتمية إلى اتحاده وإلى طبقة من طبقتى الاتحاد الآخر ؛ وكانت تسير فى الوقت نفسه على نظام « الأندوجامى » (الزواج الداخلى) إذ كانت تبيح للفرد أن يتزوج من طبقة زواجية معينة من طبقات قبيلته .

---

(١) مأخوذة من كلمتين يونانيتين : exos = من الخارج ، و gâmos = الزواج ؛ أى الزواج من الخارج أو الزواج الخارجى .

(٢) مأخوذة من كلمتين يونانيتين : endos = من الداخل . و gâmos = الزواج ، أى الزواج من الداخل أو الزواج الداخلى .



لوحة رقم ٩

بعض أنواع الرقص عند الهنود الحمر

العليا : رقصة الحرب عند عشائر « الأقدام السوداء »

والوسطى : رقصة الذرة عند عشائر « الهوبيس »

والسفلى : رقصة الوعول عند عشائر « الهوبيس »

٨

الأسباب التى قام عليها نظام المحارم

« التابو Tabou »

هذا ، وقد قيل فى الأسباب التى قام عليها هذا النظام فى الديانة التوتمية والشعوب البدائية بوجه خاص وفى الإنسانية كلها بوجه عام نظريات وفروض كثيرة[1] لعل أدناها جميعاً إلى الصحة وأقربها إلى المعقول نظرية العلامة دوركايم الذى يرى أن السبب فى هذا التحريم يرجع إلى ما يوجبه النظام التوتمى من تقديس لبعض الكائنات والأشياء التى يتمثل فيها التوتم أو يحل فيها شىء من عناصره . وذلك أن كل عشيرة فى الشعوب البدائية كانت تحيط توتمها الخاص وجميع الأشياء التى ترمز إليه أو تحل فيها مادته بسياج من التقديس . وكانت تسير حيال هذه الأشياء المقدسة وفقاً لنظام « اللامساس Tabou » ، فتحظر على الأفراد قربانها أو لمسها إلا فى ظروف خاصة وبطقوس مرسومة وبعد اتخاذ كثير من وسائل الحيطة

---

(١) عرضنا أهم هذه النظريات والفروض وناقشناها فى كتاب « الأسرة والمجتمع » (صفحات ٤١ — ٥٣ من الطبعة الرابعة) .

والحذر ، كما تقدم بيان ذلك فى الفقرتين الثانية والثالثة من هذا الفصل . وكانت تعتقد أن التوتم متجسم فى كل فرد من أفرادها وحال فى عناصره الدموية على الأخص ؛ ولذلك كان دم كل فرد من أفرادها معتبراً من أهم الأشياء المقدسة ، وأعظمها حرمة وأحقها بالإجلال ؛ فكان لمسه وقربانه محظورين حظراً تاماً على جميع أفراد العشيرة ؛ كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى الفقرة الخامسة من هذا الفصل . ولما كانت المرأة يخرج الدم من بعض أعضائها بنظام دورى فى مواقيت طمثها ، وينبعث فى دمها هذا مظاهر التوتم ؛ ولما كان قانون « اللامساس » أو « التابو Tabou » يقتضى الابتعاد عن هذه المظاهر المقدسة وعدم قربان المواطن التى اعتادت أن تخرج منها ؛ ولما كان الزواج يقتضى الاتصال بالمرأة فى هذه المواطن نفسها ؛ لذلك حرم التزاوج بين من تجمعهم رابطة قرابة توتمية ، وأحل بين الذين لا تجمعهم هذه الرابطة ؛ لأن نظم التقديس واللامساس لا تعمل بها العشيرة إلا حيال ما تنتمى إليه من تواتم ، أما التواتم الأجنبية عنها فليست ملزمة حيالها بهذه الطقوس ، كما تقدم بيان ذلك فى أواخر الفقرة الثانية من هذا الفصل.

ويحاول دوركايم أن يعمم نظريته وينظر إلى هذه التقاليد

التوتمية على أنها الأصل الأول الذى يرجع إليه تحريم الزواج بين الأقارب فى الإنسانية جمعاء ، فيقرر أنه مع تقادم العهد بهذه التقاليد تأصلت فى النفوس حرمة الزواج بين الأقارب ، وتناقلها الخلف من السلف ، ورسخت جذورها فى النظم الدينية والاجتماعية ، وتنوسى أصلها والأسباب التى دعت إليها ، فأصبحت مقدسة لذاتها ، وامتد العمل بها فى الإنسانية حتى بعد انقراض المعتقدات التى قامت عليها .

ويرى دوركايم أن الدعامة التى قام عليها هذا التحريم قد تركت عدة آثار فى كثير من الشعوب البدائية والمتحضرة . فمن ذلك أن كثيراً من الشعوب البدائية تتخذ حيال البنت التى تظهر فيها علامات الطمث فى أول حيض لها طائفة كبيرة من الاحتياطات المعقدة حتى لا يقرب منها مخلوق ، ولا تمس شيئاً يمكن أن يستخدمه أحد . ويبالغ بعضها فى هذه الاحتياطات ، حتى إنه ليحبس الفتاة فى أثناء هذا الدور فى مكان قصىّ ، ويعمل على ألا تلمس قدمها الأرض بشكل مباشر ، وعلى ألا تقع عليها أشعة الشمس نفسها ، حتى لا يتعرض أحد لمس الأرض التى لمستها أو للتعرض لأشعة الشمس التى وقعت على جسمها . وبعض هذه الاحتياطات

أو آثار منها تتخذ كذلك عند شعوب كثيرة حيال المرأة فى كل حيضة وفى كل نفاس . وقد تركت هذه التقاليد آثاراً كثيرة فى معظم الديانات الراقية نفسها وفى عدد كبير من الشعوب المتحضرة . ففى الديانة اليهودية مثلا يحرم على الحائض فى سبعة الأيام الأولى من ظهور حيضها أن تلمس إنساناً أو شيئاً ، وكل شىء تلمسه فى هذه المدة يحرم على الناس لمسه بعد ذلك[1] . ويحرم كذلك تحريماً قاطعاً أن يتصل بها رجل اتصالا جنسياً ؛ وإذا حدث هذا الاتصال فإن الرجل والمرأة كليهما يعاقبان بالإعدام[2] . أما المرأة النفساء فتظل مقيدة بالقيود نفسها التى تقيد بها الحائض فى سبعة الأيام الأولى من نفاسها إن كان المولود ذكراً ، وفى الأربعة عشر يوماً الأولى إن كان المولود أنثى ، وتظل خاضعة لقيود أخف نوعاً ما مدة ثلاثة وثلاثين يوماً أخر إن كان المولود ذكراً وستة وستين يوماً إن كان أنثى[3]. والدين الإسلامى يحرم كذلك على الرجل تحريماً باتاً قربان المرأة فى أثناء الحيض والنفاس : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا

---

(١) الفقرة ١٩ وتوابعها من الإصحاح الخامس من سفر اللاويين .

(٢) الفقرة ١٨ من الإصحاح العشرين من سفر اللاويين .

(٣) فقرة ١ وتوابعها من الإصحاح الثانى عشر من سفر اللاويين .

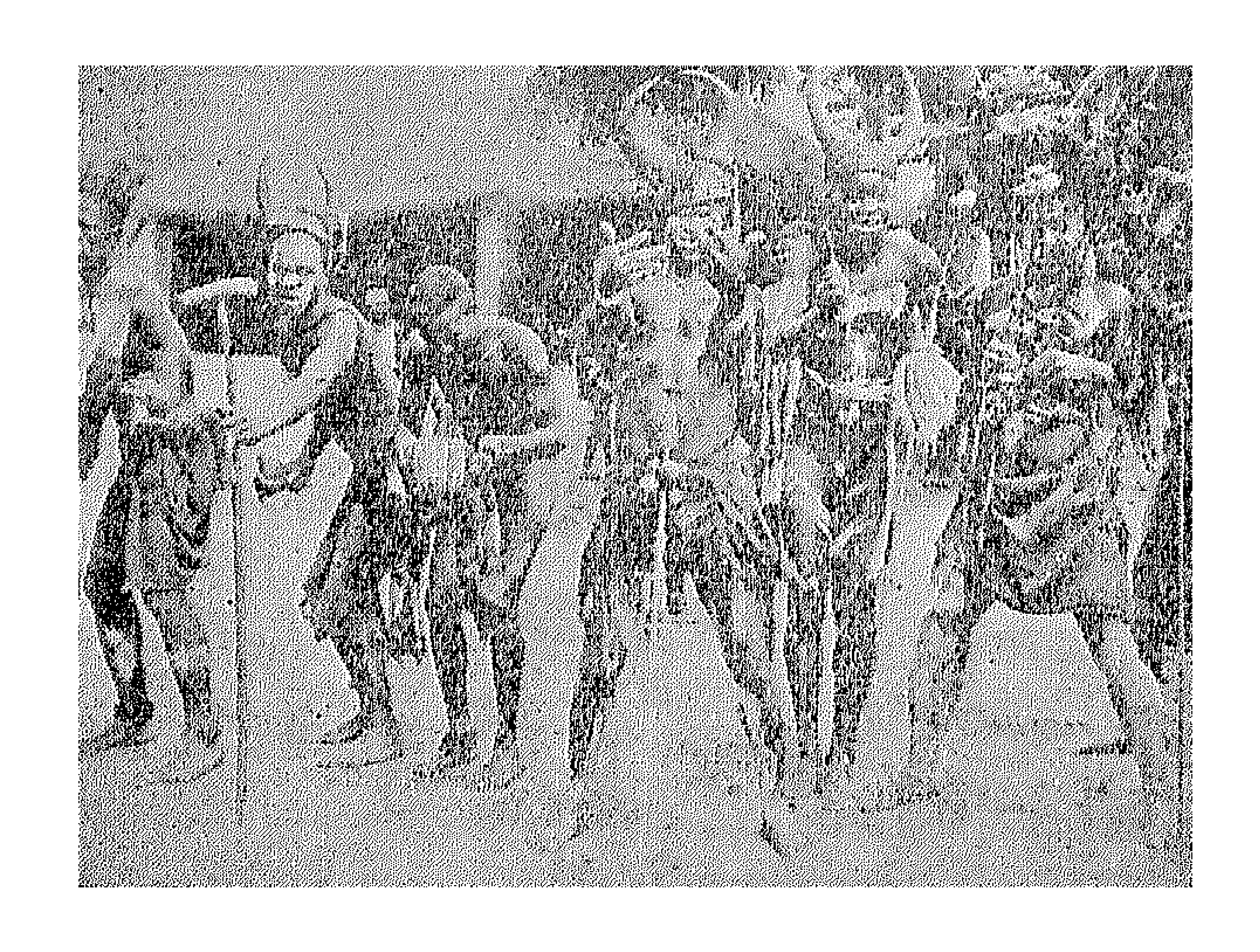
النساء فى المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطهرن[1] » .

وتذهب المعتقدات الشعبية فى كثير من الأمم فى الوقت الحاضر نفسه بصدد المرأة الحائض مذاهب تنطوى على الخوف من ملامستها للناس والأشياء . ففى الريف المصرى مثلا يعتقد أن الحائض إذا مرت بحقل جف نباته أو ساء محصوله .

ونظرية دوركايم هذه هى أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة ، وأقر بها إلى المعقول ، وأكثرها اتفاقاً مع حقائق الأمور . ولم يقم أى دليل قاطع على خطئها ؛ ولكن لم يقم كذلك أى دليل قاطع على صحتها . وكل ما يذكر لتأييدها لا يحمل على الجزم بما تقرره ، وإنما يقرب تصورها ويرجح الأخذ بها . هذا إلى أنها لا تكاد تقنع إلا فيما يتعلق بنشأة تحريم الزواج بين الأقارب فى بعض الشعوب البدائية التى سارت على النظام التوتمى . أما فيما يتعلق بتطور هذا التحريم والأشكال التى تقلب فيها فى مختلف أدواره ، والعوامل التى دعت إلى تطوره واختلافه باختلاف الأمم والشعوب ، والدعائم التى يقوم عليها فى كل مظهر من مظاهره . . . فلم تقل هذه النظرية شيئاً يطمأن إليه كل الاطمئنان .

---

(٤) آية ٢٢٢ من سورة البقرة .



لوحة رقم ١٠

بعض أنواع الرقص التنكرى فى منطقة توجو Togo

٩

محتويات العالم المادى وتوزيعها على العشائر والاتحادات بحسب النظام التوتمى

يدخل النظام التوتمى جميع محتويات العالم المادى الخارجة عن التواتم ورموزها والعشائر وأفرادها، تحت مجموعتين من الأشياء يختص كل اتحاد من اتحادى القبيلة بمجموعة منهما. ويراعى فى الغالب فى تقسيم الأشياء بين اتحادى القبيلة على هذا النحو أن يكون نصيب كل اتحاد منهما مقابلاً من بعض الوجوه لنصيب الاتحاد الآخر. فإذا كانت الشمس مثلاً من نصيب أحد الاتحادين، كان القمر والنجوم وما إلى ذلك من المظاهر الفلكية لليل من نصيب الاتحاد الآخر؛ وإذا نسب لأحد الاتحادين فصيلة الببغاء الأبيض، نسب للاتحاد الآخر فصيلة الببغاء الأسود . . . وهلم جرا. والأشياء التى يختص بها كل اتحاد توزع على عشائره، فينسب لكل عشيرة قسم منها. والأشياء التى تخص كل عشيرة تحمل توتمها

كما يحمله أفراد العشيرة أنفسهم . فإذا كان القمر والسحاب وشجر البلوط والإوز من نصيب عشيرة توتمها الكنغر مثلا ، فإن النظام التوتمى يقضى بأن تشترك هذه الأشياء مع العشيرة فى توتمها ، أى أن الكنغر فى هذه الحالة يصبح كذلك توتماً للقمر والسحاب وشجر البلوط والإوز ، كما أنه توتم للعشيرة التى تنسب إليها هذه الأشياء . وقد جرت العادة أن يكون ثمة نوع من التجانس بين توتم العشيرة والأشياء التى تنسب إليها . فإذا كان اللون الغالب على توتم العشيرة هو السواد مثلا نسبت إليها الأشياء ذات اللون الأسود وظواهر الفلك التى تبدو فى ظلمة الليل كالقمر والنجوم . وقد لا يكون هذا التجانس واضحاً فى بعض الأمور بالنسبة لتفكيرنا نحن وفهمنا لحقائق الأشياء ؛ ولكنه يبدو دائماً فى غاية الوضوح فى نظر هذه العشائر .

والأشياء التى تنسب إلى العشيرة تؤلف مع أفراد العشيرة ومع توتمها وحدة اجتماعية أو ما يشبه الأسرة الواحدة . وتعتبر هى والتوتم وأفراد العشيرة من طبيعة واحدة . فعندما ينسب القمر مثلا لعشيرة توتمها الكنغر ، يكون معنى ذلك فى نظر هذه العشيرة أن القمر والكنغر من طبيعة واحدة ، أى أن القمر قمر

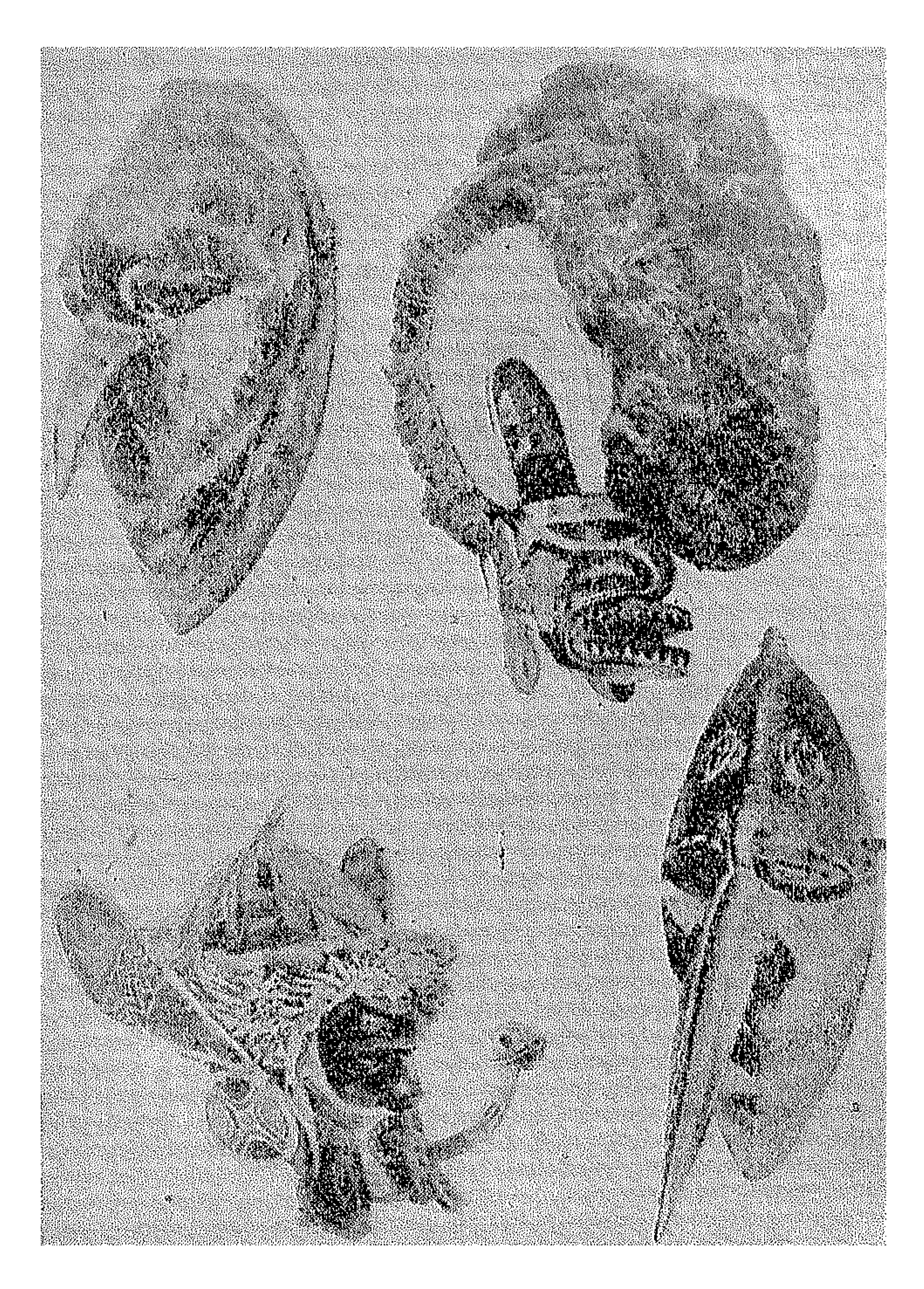
وكنغر فى آن واحد ، كما أن كل فرد من أفراد العشيرة آدمى وكنغر فى آن واحد على النحو الذى سبق شرحه فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل(١) . وتراعى هذه الوحدة وهذه القرابة فى مختلف شئون الحياة وشتى مظاهر السلوك . فإذا أريد مثلا صيد حيوان ينتمى إلى عشيرة ما ، فإن الصائد يتحاشى أن يستخدم سهماً متخذاً من شجرة تنتمى إلى هذه العشيرة ، لاعتقاده أنه إن فعل ذلك فإن السهم سينحرف حتما من تلقاء نفسه حتى لا يصيب قريبه الحيوان .

ومن ثم لا يحل لأفراد العشيرة أن يطعموا من الحيوانات والنباتات التى تنسب إلى عشيرتهم وتحمل توتمها إلا بقيود وشروط تشبه القيود والشروط التى لا يحل لهم بدونها أن يطعموا من توتمهم نفسه ، والتى سبقت الإشارة إليها فى الفقرة الأولى من هذا الفصل ، وذلك لاعتقادهم أن جميع ما ينسب إلى العشيرة ويحمل توتمها يشترك مع التوتم فى قدسيته ، كما أن أفراد العشيرة أنفسهم يشتركون معه فى ذلك على النحو الذى سبق شرحه فى الفقرة الرابعة من هذا الفصل (٢) .

---

(١) انظر ص ٣١ وتوابعها .

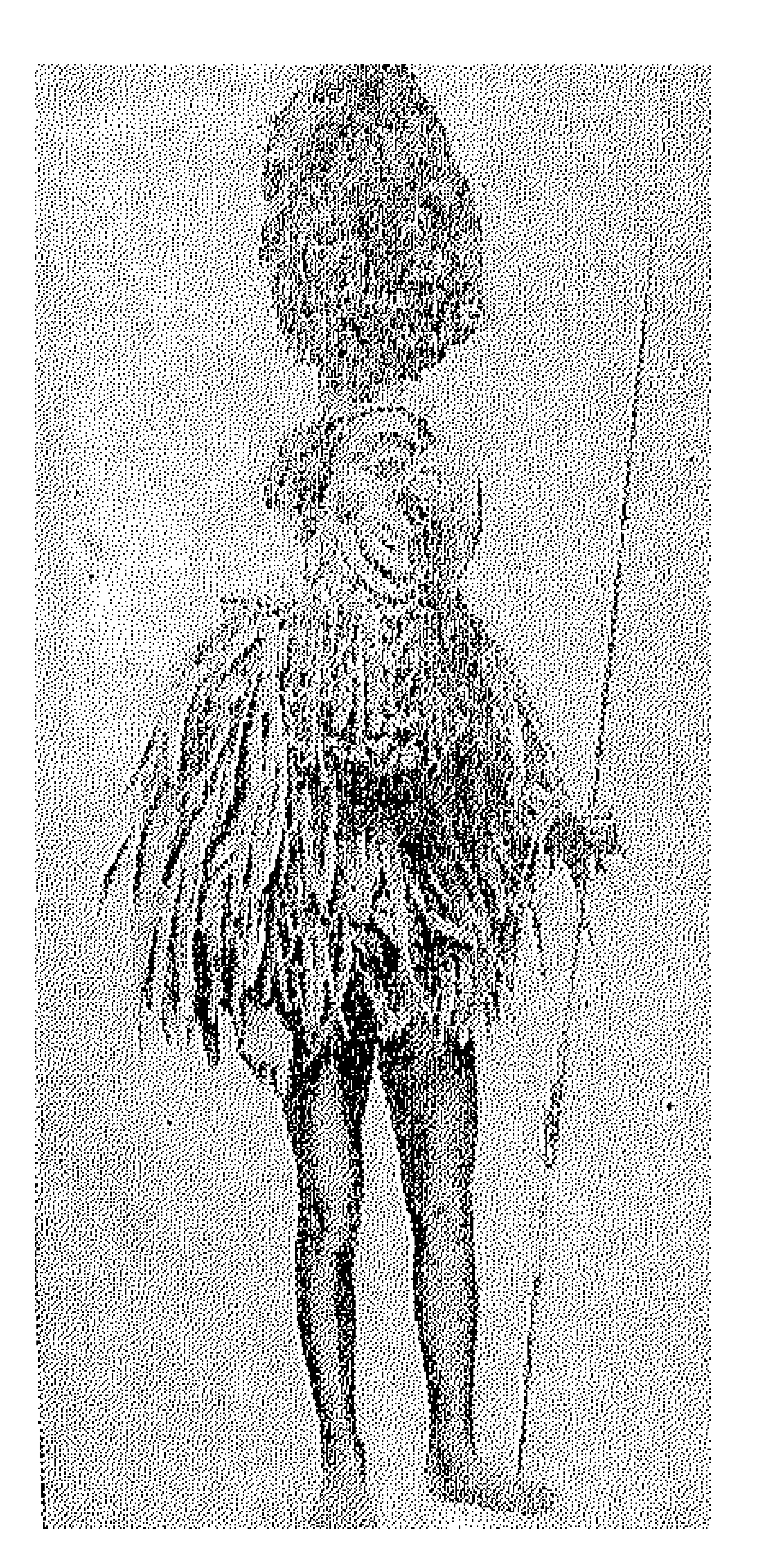
(٢) انظر صفحة ٣٧ وتوابعها .

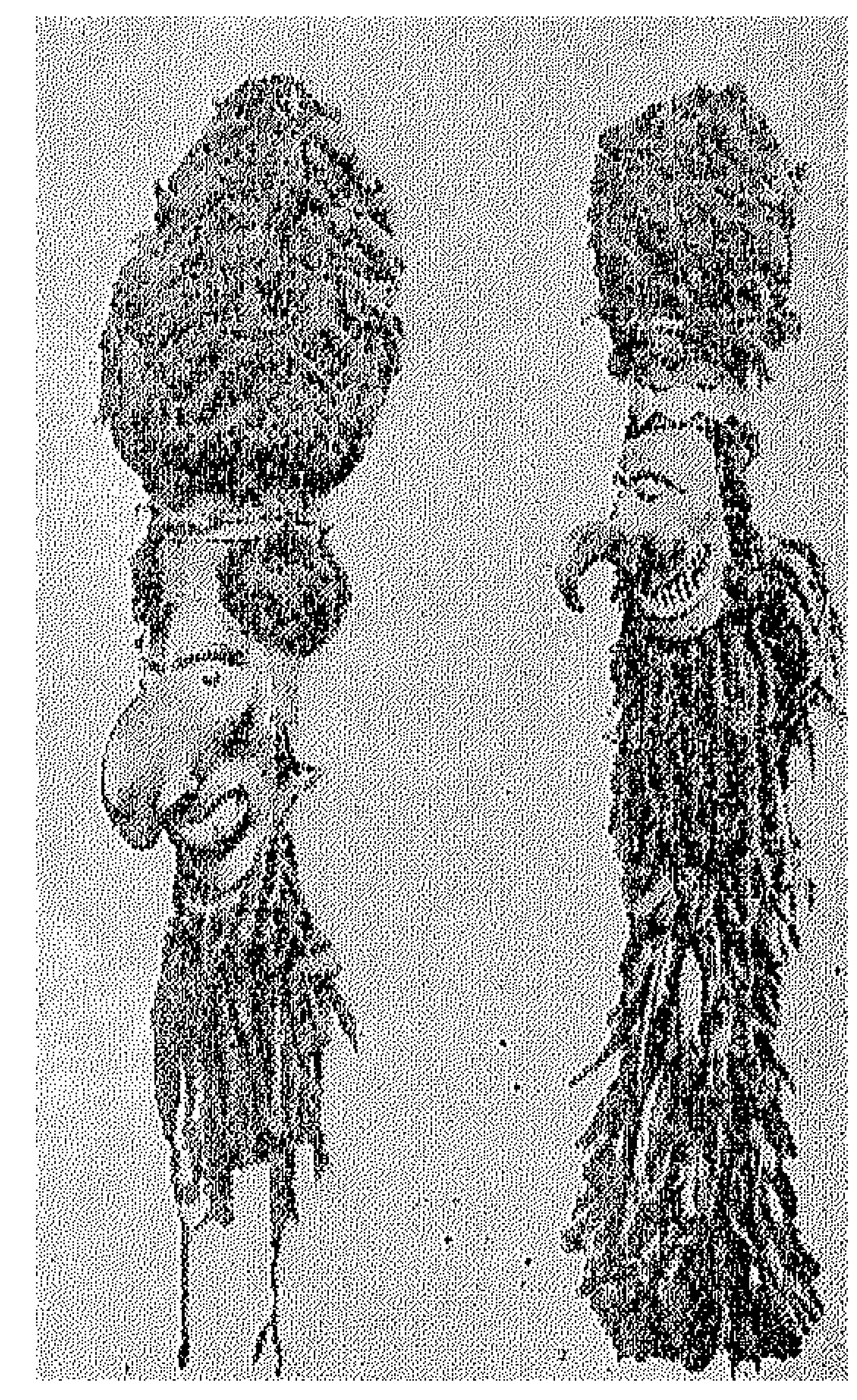


لوحة رقم ١١

بعض أنواع الأقنعة التى تلبس فى حفلات الرقص الدينى
فى جزيرة أورفيل وفى غينا الجديدة وفى إيرلندا الجديدة

Ile d'Urville, Nouvelle Guinée, Nouvelle Irland





لوحة رقم ١٢
بعض أنواع الأقنعة المزينة بالريش والشعر والمستخدمة فى حفلات الرقص

١٠

النظام التوتمى محاولة بدائية
لفهم العالم أجمع على نحو ما

فالنظام التوتمى ينطوى إذن على محاولة لفهم العالم كله وفهم طبيعة عناصره ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الديانات الإنسانية السماوية والوضعية . فجميع محتويات العالم المادى نجدها ، بحسب الفهم التوتمى ، موزعة بنظام خاص على العشائر التى تشتمل عليها القبيلة ، وما ينسب منها لعشيرة ما يعتقد أنه من طبيعتها ومن طبيعة توتمها . وبعبارة أخرى : ينقسم العالم المادى بحسب النظام التوتمى أقساماً يدخل تحت كل قسم منها جميع الأشياء المتحدة فى الطبيعة . فإذا كانت القبيلة تنتظم عشر عشائر مثلا انقسم العالم أجمع تبعاً لذلك إلى عشرة أجناس أو عشر فصائل يندرج تحت كل جنس منها أو تحت كل فصيلة منها ما تتوافر فيه طبيعة هذا الجنس أو خصائص هذه الفصيلة .

ومن هذا يظهر أن عقائد كل عشيرة مرتبطة ارتباطاً

وثيقاً بعقائد العشائر الأخرى المشتركة معها فى القبيلة ، وأنه من مجموع هذه العقائد تتألف ديانة كاملة تفسر جميع مظاهر الكون وتنتظم جميع عناصره . فالنظام التوتمى فى أكمل مظاهره هو إذن مجموعة عقائد القبيلة التى يكمل بعضها بعضاً وتتألف منها فكرة شاملة لجميع محتويات العالم المادى .

١١

أثر النظام التوتمى
فى نشأة فكرة الجنس والنوع

وقد ذهب العلامة دوركايم إلى أن قسطاً كبيراً من الفضل فى نشأة فكرة الجنس والنوع فى العالم الإنسانى يرجع إلى هذا التقسيم التوتمى . فهذا التقسيم الاجتماعى هو الذى قد أوحى إلى العقل الإنسانى — فى نظر دوركايم — بأن العالم يشتمل على أجناس وأنواع ينفصل كل منها عما عداه ، ويندرج تحت كل منها أمور متحدة الطبيعة . ويرى دوركايم أنه لولا هذا التقسيم التوتمى ، الذى يمثل فى نظره أقدم تقسيم اجتماعى ،

ما كان يمكن أن يصل العقل الإنسانى وحده إلى فكرة الجنس والنوع ؛ إذ ليس فى طبيعة الأشياء الخارجة ما يمكن أن يوحى إلى الإنسان بهذه الفكرة . فالجنس والنوع كلاهما تصوران فكريان خالصان لا وجود لواحد منهما فى الخارج ؛ وإنما الموجود فى الخارج هم الأفراد الذين يدخلون تحت كل منهما[1].

ولا يخفى ما تنطوى عليه هذه النظرية من مبالغة ومجانبة للصواب . صحيح أن المعنى الكلى للجنس والنوع هو تصور بحت لا وجود له فى الخارج ؛ ولكن العقل يستنبطه استنباطاً من ملاحظة اتفاق طائفة من الأفراد فى بعض الصفات المشتركة الذاتية ، ثم يعممه بإطلاقه على جميع ما تتوافر فيه هذه الصفات . فهو إذن نتيجة لثلاث عمليات عقلية : تتمثل أولاها فى ملاحظة الجزئيات وإدراك ما بينها من صفات ذاتية مشتركة ؛ وتتمثل الثانية فى استنباط المعنى الكلى الذى يشملها ؛ وتتمثل ثالثتها فى تعميم هذا المعنى الكلى وإطلاقه على جميع ما تتوافر فيه هذه الصفات . وهذه العمليات عمليات طبيعية يندفع إليها العقل الإنسانى بمجرد ملاحظته للتشابه بين الجزئيات ؛

---

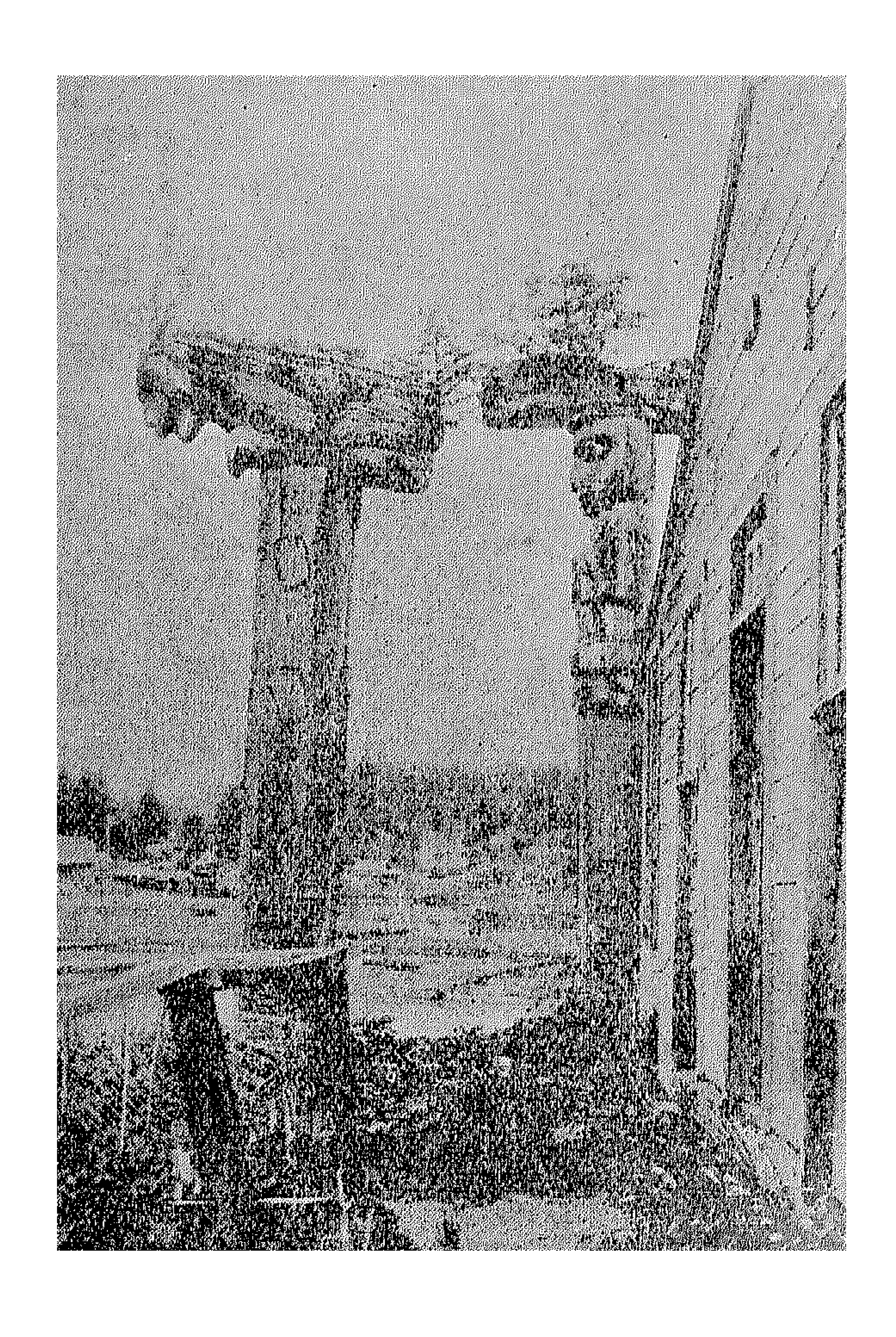
(1) Durkheim, Formes Elémentaires de la Vie Religieuse, p.p. 205 et suiv. (2e. édition)

حتى إنها لتوجد فى مراحل الطفولة الأولى نفسها . صحيح أن الطفل قد يخطئ فى الملاحظة أو فى الاستنباط أو فى التعميم ، فيطلق اسم الجنس على غير جزئياته ، أو على بعض جزئياته دون بعض . ولكنه لا يلبث أن يصحح أخطاءه بتكرار الملاحظة واستبعاد الصفات العرضية فى الأشياء كاللون والطول والعرض والاعتماد على الصفات الذاتية وحدها التى تختلف بها الأجناس بعضها عن بعض.

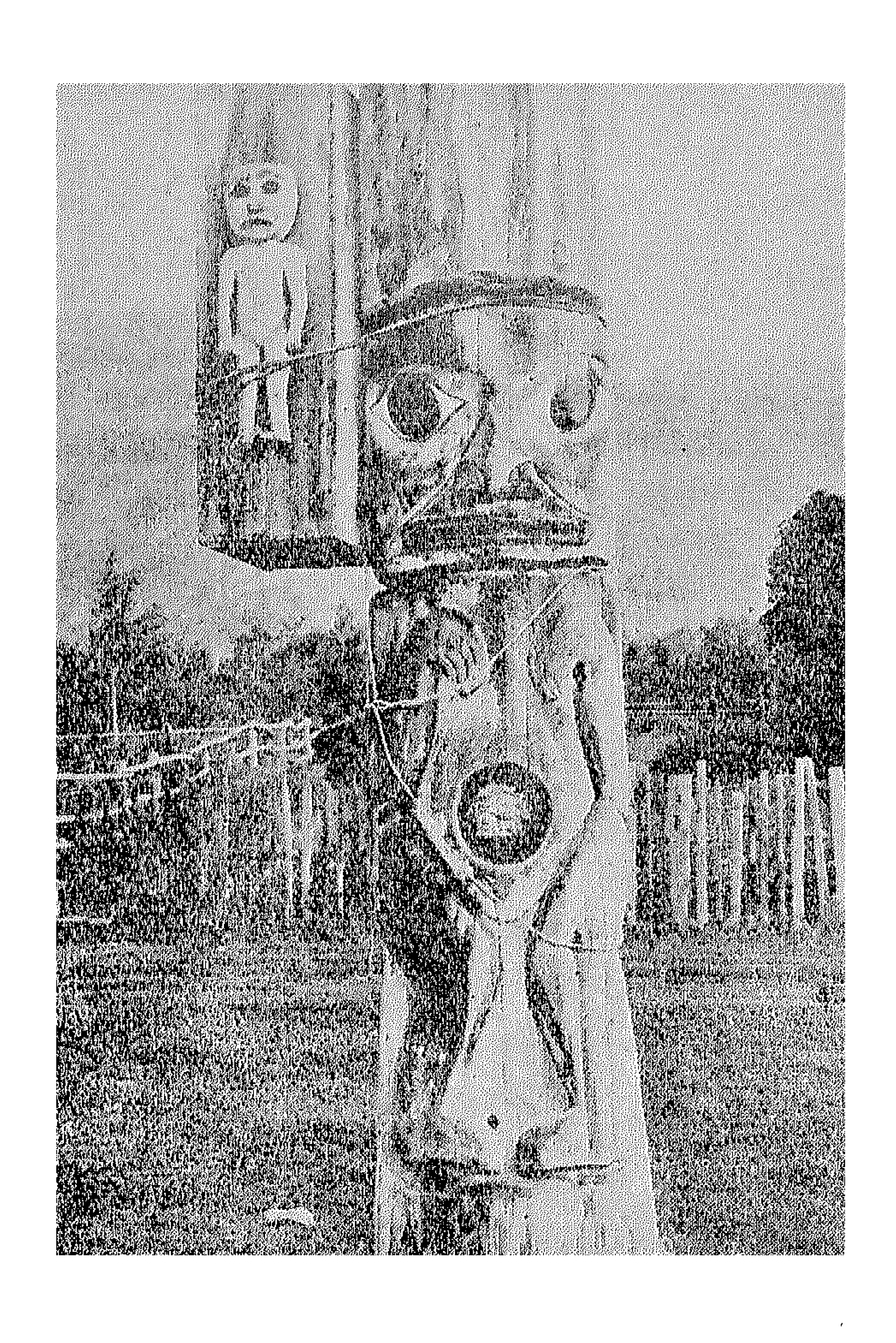
ففكرة الجنس هى إذن فكرة طبيعية لا تتوقف نشأتها على أى تقسيم اجتماعى ؛ بل إنه ليتوقف عليها كل تقسيم اجتماعى ، بما فى ذلك التقسيم التوتمى نفسه . فقد تقدم لنا أن النظام التوتمى ، إذ يقسم الأشياء إلى طوائف ، يراعى تجانس الأشياء واتفاقها فى صفات مشتركة ، فيجمع الأشياء المتجانسة بعضها إلى بعض ويدخلها تحت طائفة واحدة . ففكرة التجانس هى إذن أساس لهذا التقسيم لا نتيجة له كما تذهب نظرية دوركايم [1].

---

(١) يلاحظ أن دوركايم قد عاد فخفف من عموم نظريته واعترف بأن العقل الإنسانى يندفع بطبعه إلى ملاحظة التشابه والتباين بين الأشياء . انظر المرجع السابق صفحة ٢٠٦ وتوابعها . (الطبعة الثانية) .



لوحة رقم ١٣
عصا توتمية مستخدمة فى بعض مناطق ألاسكا



اللوحة رقم ١٤

عصا توتمية مستخدمة فى منطقة كيتوانجا بكلومبيا البريطانية

Kitwanga (Colombie Britanique)

١٢

التوتم الفردى

لوحظ فى كثير من العشائر الأمريكية وفى بعض العشائر الأسترالية أن الأفراد لا يقنعون بتواتم عشائرهم واتحاداتهم ، بل يتخذ كل واحد منهم لنفسه توتماً خاصاً به . ويطلق الباحثون على هذا الصنف من التواتم اسم « التوتم الفردى »
totem individuel

وأكثر ما تكون التواتم الفردية من أصناف الحيوان . وقد تتمثل أحياناً فى بعض أعضاء أو أجزاء خاصة من حيوان أو جماد أو فى شىء مصنوع .

ويحمل الفرد اسم توتمه بجانب توتم عشيرته ، وينزل الكلمة الدالة على توتمه منزلة الاسم فى اصطلاحنا الحديث ، بينما ينزل الكلمة الدالة على توتم عشيرته منزلة اللقب أو منزلة الاسم العام للأسرة التى ينتمى إليها الفرد .

وكما ترمز العشيرة لتوتمها العام ، يرمز الفرد أحياناً لتوتمه الخاص . ففى بعض العشائر التى تسير على هذا النظام يرمز

الأفراد لتواتمهم بأن يحمل كل منهم جلد الحيوان أو خصلة من ريش الطائر الذى اتخذه توتماً ؛ وفى بعضها يرسم كل فرد توتمه على أسلحته وأمتعته أو على بعض أجزاء من جسمه بالوشم وما شاكله .

ويعتقد كل فرد فى هذه العشائر أنه متلبس بجميع صفات توتمه الخاص . فإذا كان توتمه نسراً مثلا اعتقد أنه هو نفسه مزود بجميع صفات النسور من حدة البصر وقوة الانقضاض وما إلى ذلك ؛ بل لقد يذهب به تصور المشابهة إلى أبعد من ذلك ، فيظن أنه صالح لأن يستحيل إلى حيوان أو طائر من فصيلة توتمه الخاص فى بعض المناسبات . وقد يتجاوز الأمر تصور المشابهة إلى تصور الوحدة ، فيعتقد أنه هو وتوتمه شىء واحد ، أو أنهما صورتان لكائن واحد ، وأن كل ما يصيب إحدى الصورتين من حوادث جسمية أو نفسية يسرى أثره على الصورة الأخرى .

والعقيدة السائدة فى هذه العشائر أن توتم كل فرد يقوم بحمايته ووقايته مما عسى أن يتهدده من أخطار والإيحاء إليه بما سيعرض له وبوسائل المقاومة والخلاص . فهو قرينه وصديقه وملاذه وحاميه . وكثيراً ما تسيطر هذه العقيدة على نفوس

الأفراد فيقتحم الواحد منهم المخاطر بلا خوف ولا وجل ولا بصر بالعواقب ، موقناً أن توتمه معه يمده بروحه ، ويكفل له الظفر والنجاح . والعقيدة السائدة كذلك أن لكل شخص دالة وسلطة خاصة على توتمه الفردى ، فى استطاعته أن يستخدمه فى مختلف رغباته وأن ينال منه كل ما يشاؤه .

وتختلف العشائر السائرة على هذا النظام فى الطرق المتبعة فى اختيار الأفراد تواتمهم الخاصة .

وأكثر الطرق انتشاراً فى العشائر الأمريكية أن الفرد عندما يبلغ دور المراهقة ويقرب من مرحلة التعميد Initiation[1] يعتزل الناس معتكفاً فى مكان قصىّ يختاره فى أطراف جبل أو غابة ، ولا يدخر وسعاً فى أثناء اعتكافه هذا فى تعذيب جسمه وحرمانه من جميع لذائذه وحاجاته الضرورية . فيلتزم الصيام عن معظم المأكولات والمشروبات ، ولا يتناول شيئاً مما يبيحه لنفسه منها إلا بعد أن يشرف على الهلاك وبالقدر الذى ينقذ حياته . ولا يكتفى بهذا المسلك السلبى فى تعذيب جسمه ، بل يعمد إلى وسائل إيجابية فى التعذيب كالكى والتحريق والتقطيع . . . وما إلى ذلك . ويظل على هذه الوتيرة

---

(١) انظر صفحة ٢٥ .

أشهراً طويلة حتى ينتهى به الأمر إلى حالة قريبة من الجنون ، فتضطرب حركاته ، ويشتد صراخه وعويله ، ويهذى فى حديثه . وحينئذ يكون مهيئاً لأن يوحى إليه بتوتمه الفردى . ويجيئه هذا الوحى فى صورة رؤيا فى النوم أو حلم من أحلام اليقظة .

وأما فى أستراليا فقد جرت العادة فى معظم الأحوال أن يعهد الفرد إلى أحد أقربائه أو أحد شيوخ عشيرته أو كهانهم أن يختار له توتمه . وقد يتبع لديهم أحياناً فى هذا الاختيار طرق أخرى تقوم على المصادفة والاتفاق ، ففى بعض العشائر الأسترالية تمسك جدة الفرد أو عجوز أخرى من قريباته بخيط رقيق مربوط به جسم ثقيل وتديره بشدة فى الهواء ، ويتجمع حولها فى أثناء ذلك نسوة يلفظن أسماء لحيوانات ونباتات وجمادات . فالاسم الذى يتفق لفظه فى الوقت الذى ينقطع فيه الخيط وينفصل عنه الثقل يصبح مسماه توتماً للفرد الذى تجرى من أجله هذه الطقوس .

هذا ، ويختلف التوتم الفردى عن توتم العشيرة من عدة وجوه :

فتوتم العشيرة توتم معروف مقرر ينتمى إليه كل فرد من أفراد العشيرة بمجرد ولادته بحسب النظم الاجتماعية الثابتة التى أشرنا إليها فى الفقرة السادسة من هذا الفصل[١] . أما التوتم الفردى فهو توتم طارئ ، غير معروف من قبل ، يتخذه الفرد اتخاذاً بعد أن يصل إلى مرحلة ما فى حياته على النحو الذى سبق بيانه .

وتوتم العشيرة يتمثل فى فصيلة برمتها من الحيوان أو النبات كما سبق بيان ذلك فى الفقرة الأولى من هذا الفصل[٢] ؛ أما التوتم الفردى فالأصل فيه أنه فرد معين بالذات من أفراد فصيلته يتخذه الشخص قريناً وحامياً له . فالشخص لا يتخذ مثلا فصيلة الذئاب أو فصيلة شجر البلوط توتماً فردياً كما تفعل ذلك عشيرته ؛ وإنما يتخذ ذئباً معيناً من هذه الفصيلة أو شجرة معينة من هذه الأشجار .

وتوتم العشيرة توتم عام إجبارى . فمن المحال أن يكون ثمة عشيرة بدون توتم ، وأن يكون ثمة فرد لا يحمل توتم عشيرته ، أما التوتم الفردى فلا يتسم بهذه العمومية ولا بهذا الإجبار .

---

(١) انظر صفحة ٤٥ وتوابعها .

(٢) انظر صفحه ١٣ وتوابعها .

فكثير من العشائر الأسترالية وبعض العشائر الأمريكية لا يوجد لديها بتاتاً نظام التوتم الفردى ، ومعظم العشائر التى يوجد لديها نظام التوتم الفردى لا تعتبر اتخاذه واجباً محتوماً على كل فرد ، بل تنظر إليه نظرتها إلى أمر اختيارى مستحب ولكن يمكن إغفاله .

ويختلفان كذلك فى أنه لا يمكن أن يكون للعشيرة أكثر من توتم واحد ، على حين أن التوتم الفردى يمكن أن يكون متعدداً . فقد يتخذ الفرد أكثر من توتم فردى واحد إذا رغب أن تزداد وسائل حمايته .

وتوتم العشيرة توتم ثابت لا يتغير ، بينما يمكن تغيير التوتم الفردى إذا دعت إلى ذلك حاجة أو رغبة . فإذا شعر شخص مثلا أن توتمه الفردى لا يقوم بواجب حمايته حق القيام ، فإنه لا يرى حينئذ غضاضة فى نبذه واستبدال توتم آخر به .

وتوتم العشيرة يصح لأفرادها أن يطعموا منه وأن يسمحوا لغيرهم بأن يطعموا منه بقيود خاصة على النحو الذى سبق بيانه[1] . أما التوتم الفردى فلا يجوز بحال لصاحبه أن يطعم منه ولا أن يصيده ولا أن يصيبه بأذى ، كما لا يجوز له أن يسمح لغيره بشىء من ذلك مهما كانت الظروف والضرورات .

---

(١) انظر صفحات ١٥ — ١٧ .

وذلك لأن الشخص يعتقد أن مصيره معلق بمصير توتمه الفردى وأن كل ما يصيب هذا التوتم يصيبه هو بالذات[1].

وتعتقد العشيرة أنها من طبيعة توتمها ، وأنها تؤلف مع فصيلة هذا التوتم وحدة اجتماعية أو ما يشبه الأسرة الواحدة ، وأن أفرادها وأفراده أقرباء ينحدرون من أصل واحد ودم واحد[2]. أما التوتم الفردى فلا يتوافر فيه شيء من هذه الصفات فى نظر صاحبه . فهو بالنسبة له حام وقرين يرتبط معه بالروابط الوثيقة التى ذكرناها ؛ ولكنهما ليسا أقرباء ولا منحدرين عن أصل واحد .

* * *

هذا ، ولا يزال للتوتم الفردى رواسب كثيرة فى العصر الحاضر . ففى الأمم المسيحية يتخذ كل فرد حامياً له من بين الحواريين أو القديسيين . وقد جرت العادة فى بعض الأمم الأوروبية أن تغرس الأسرة شجرة يوم أن يولد لها وليد ، وتحيط هذه الشجرة بعناية كبيرة ، وتعتقد أن مصير الطفل معلق بمصيرها . وقد ضرب العلامة فريزر فى كتابه « الغصن الذهبى » The Golden Bough أمثلة أخرى كثيرة لرواسب هذا النظام فى العصر الحاضر .

---

(١) انظر ص ٨٢ .

(٢) انظر ص ١٤ .

١٣

التوتم الجنسى
أو توتم الذكور وتوتم الإناث

وبجانب توتم العشيرة وتوتم الاتحاد والتوتم الفردى يوجد فى بعض القبائل الأسترالية نوع رابع من التواتم هو التوتم الجنسى الذى يتميز به جنس الذكور من أفراد القبيلة على الإطلاق عن جنس إناثها على الإطلاق . فنى المجتمعات التى تسير على هذا النظام ينتسب ذكور القبيلة جميعاً إلى توتم خاص واحد بقطع النظر عن تعدد العشائر والاتحادات التى ينتمون إليها وتعدد تواتمها ، وينتسب إناثها جميعهن كذلك إلى توتم آخر بقطع النظر عن تعدد العشائر والاتحادات التى ينتمين إليها وتعدد تواتمها . ويتمثل التوتم الجنسى فى فصيلة من الحيوان أو النبات ، كما هو الشأن فى توتم العشيرة .

وتعتقد القبائل التى تسير على هذا النظام أن بين أفراد كل جنس والتوتم الذى ينتمون إليه رابطة قرابة واتحاد فى الأصل والدم والطبيعة ، كما يعتقد ذلك أفراد العشيرة بالنسبة

لتوتم عشيرتهم . ويتخذ أفراد كل جنس حيال توتمهم المسلك نفسه الذى يتخذه أفراد العشيرة حيال توتمها ، فيحظرون على أنفسهم أن يمسوه بسوء أو يأكلوا لحمه أو يدخلوا شيئاً من عناصره فى أجوافهم إلا فى بعض حالات حددتها التقاليد . ولا يحتمل أحد الجنسين أن ينال الجنس الآخر توتمه بأذى . وكثيراً ما أدت مخالفة هذه الآداب والتقاليد إلى ما يشبه الحرب الأهلية بين ذكور القبيلة جميعاً من جهة وأناثها جميعهن من جهة أخرى .

هذا ، وانتماء جميع ذكور القبيلة إلى توتم واحد وجميع إناثها إلى توتم آخر بقطع النظر عن تعدد عشائرهم وعشائرهن وتعدد اتحاداتهم واتحاداتهن يقدم لنا دليلا آخر على ما سبق أن قررناه فى الفقرة العاشرة من هذا الفصل من أن الوحدة الاجتماعية الكاملة لهذه الشعوب البدائية هى القبيلة لا العشيرة ، وأن الديانة التوتمية فى صورتها الكاملة ليست ديانة العشيرة ، بل هى ديانة القبيلة جمعاء[1].

---

(١) انظر صفحتى ٧٥ ، ٧٦ .

١٤

توتم الطبقات الزواجية

وبجانب هذه التواتم الأربعة يوجد فى بعض القبائل الأسترالية نوع خامس من التواتم هو توتم « الطبقة الزواجية » التى تكلمنا عنها فى الفقرة السابعة من هذا الفصل [١]. فى هذه القبائل ينتمى أفراد كل طبقة زواجية من الطبقات الأربع التى تشتمل عليها القبيلة إلى توتم خاص .

١٥

التوتم المحلى أو توتم المنطقة أو التوتم الحملى

وبجانب هذه الأنواع الخمسة من التواتم ، يوجد فى بعض العشائر الأسترالية نوع سادس هو التوتم المحلى tatem local الذى سبق أن أشرنا إليه فى الفقره السادسة من هذا الفصل [٢] .

---

(١) انظر صفحة ٥٣ وتوابعها .

(٢) انظر صفحتى ٤٨ ، ٤٩ .

فى بعض العشائر الأسترالية كعشيرة الأرونتا وبعض عشائر أخرى بأستراليا الوسطى وكعشيرة البنكيين Aruntas,Banks يعتقد أن لكل منطقة جغرافية توتمها الخاص . ويعتبر توتم كل منطقة فى الوقت نفسه توتماً لعشيرة خاصة يجمع بين أفرادها ويربطهم بهذا التوتم مظهر غريب من مظاهر المصادفة والاتفاق . وذلك أن الولد فى هذه المجتمعات يتبع توتم المكان الذى أحست فيه الأم لأول مرة بتحركه فى بطنها وهو جنين . فإذا أحست ذلك فى منطقة توتمها الذئب مثلا أصبح الذئب توتماً للولد والتحق نسبه بأفراد العشيرة التى تنتمى إلى هذا التوتم . فأفراد عشيرة الذئب فى المثال الذى ضربناه يتألفون إذن من الأفراد الذين أحست أمهاتهم لأول مرة والذين ستحس أمهاتهم لأول مرة بتحركهم فى بطونهن وهم أجنة فى هذه المنطقة .

فالتوتم المحلى هو توتم لمنطقة جغرافية ، وهو فى الوقت نفسه محور تتجمع حوله عناصر عشيرة وفقاً لهذا الاصطلاح الغريب . ولصلة هذا التوتم بالحمل أو الجنين أطلق عليه العلامة فريزر اسم « التوتم الحملى » totem conceptionel .



لوحة رقم ١٥

أحد الهنود الحمر من عشيرة القدم السوداء pied noir وهو يحمل على وجهه وثيابه وغطاء رأسه وعصاه رموز توتمه

الفصل الثانى

تفسير النظام التوتمى ورجعه إلى أصوله

اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً فى تفسير النظام التوتمى الذى أجملنا وصفه فى الفصل السابق ، وفى شرح ما يتضمنه من عناصر ، وبيان ما عسى أن يرجع إليه من أصول . وترجع أهم النظريات التى قيلت فى هذا الصدد إلى ثلاث نظريات سنعرضها ونناقشها فى الفقرات التالية :

١

نظرية تايلور وويلكن Tylor, Wilkem

التوتمية منشعبة عن عبادة أرواح الموتى

يرى تايلور وويلكن [1] أن التوتمية قد انشعبت عن عبادة الأرواح ، وأن هذا الانشعاب قد نشأ عن طريق ما يعتقده

V. Tylor : Civilisation primitive I, p. 465, II, p. 305; Remarks on totemism... etc in J.A.I., XXVIII et I de la nouvelle série, p. 138. — Wilken : Het Animisme bij den Volken van den indischen Archipel p. p.69-75.

كثير من الشعوب البدائية وغيرها من إمكان « تناسخ الأرواح » وحلولها فى غير أجسامها الأولى . فأرواح السلف كانت موضع تقديس الخلف وعبادتهم ، وكانت فى مبدأ أمرها قائمة بذاتها منفصلة عن الأجسام . ثم أخذ الاعتقاد بتناسخ الأرواح يتدخل شيئاً فشيئاً فى هذا الموضوع حتى انتهى الأمر ببعض الشعوب البدائية إلى الظن بأن هذه الأرواح قد حلت فى أجسام بعض الحيوانات أو بعض النباتات . فأصبحت هذه الحيوانات وهذه النباتات مقراً لأرواح السلف من الآباء والأجداد ، واتجه إليها التقديس . ولكنه كان يتجه إليها هى بالتبعية ، ويتجه بالأصالة لما تتقمصه من أرواح . ومع تقادم العهد تنوسى هذا الأصل ، وأصبحت هذه الحيوانات وهذه النباتات مقدسة لذاتها ، فنشأ من ذلك ما نسميه بالنظام التوتمى.

وقد أورد تايلوروو يلكن لتأييد نظريتهما هذه عدة شواهد اقتبساها من ملاحظة بعض الظواهر الدينية فى جزر جاوة وسومطرة وميلانيزيا . فمن ذلك مثلا أنه فى بعض هذه الجزر يقدس الناس التماسيح ويقدمون لها القرابين ، ويعللون مسلكهم هذا بأنهم إنما يقدسون أرواح السلف التى حلت فى هذه الحيوانات .

غير أنه يلاحظ أن جميع الشواهد التى قدماها بين يدى نظريتهما مقتبسة من شعوب قد تطورت فيها التوتمية تطوراً كبيراً حتى خرجت عن أصلها وأخذت تستحيل إلى نظام دينى آخر . فمن الخطأ النظر إلى شعائر شعوب هذا شأنها على أنها ممثلة للنظام التوتمى الصحيح ، فضلا عن أن ينظر إليها على أنها ممثلة لهذا النظام فى مبدأ نشأته كما يزعم أصحاب هذه النظرية . وإن المبادئ الأولية لمناهج البحث العلمى لتقتضينا ، حينما نريد الوقوف على الأصول الأولى لنظام ما ، أن نبحث عنها فى أبسط أشكال هذا النظام وأقدمها وأشدها سذاجة وأبعدها عن التطور . وأبسط أشكال النظام التوتمى وأقدمها وأشدها سذاجة وأبعدها عن التطور هى الأشكال التى كان معمولا بها عند السكان الأصليين لأستراليا فى فاتحة كشفها . وبالبحث فى هذه الأشكال لا نرى فيها أى أثر للاعتقاد بحلول أرواح الموتى فى التواتم من الحيوان والنبات . صحيح أنه كان يوجد لدى الأستراليين الاعتقاد بحلول بعض أرواح الموتى فى أجسام حية ؛ ولكنهم كانوا يعتقدون أن هذا الحلول لا يمكن أن يكون إلا فى أجسام الأحياء من الآدميين لا فى أجسام الحيوانات أو النباتات .

هذا إلى أن الاعتقاد بإمكان حلول روح الإنسان فى

الحيوان أو النبات يتوقف على الاعتقاد بأنه من الممكن أن تتحد طبيعة الأناسى مع طبيعة بعض الحيوانات أو النباتات ؛ إذ لا يستساغ أن تحل روح كائن فى كائن آخر يختلف عنه فى طبيعته . والاعتقاد بأنه من الممكن أن تتحد طبيعة بعض الأناسى مع طبيعة بعض الفصائل من الحيوان أو النبات هو قوام الديانة التوتمية نفسها وأهم دعامة تقوم عليها عناصرها وشعائرها . وذلك أن الأصل الذى تقوم عليه هذه الديانة ، كما وضحنا ذلك فى الفصل الأول من هذا الكتاب ، يتمثل فى الاعتقاد بأن أفراد العشيرة من الأناسى وأفراأد توتمها من الحيوان أو النبات يؤلفون وحدة اجتماعية أو ما يشبه الأسرة الواحدة ويرجعون جميعاً إلى طبيعة واحدة وعنصر واحد[1]. فالعقيدة التى يرى تايلور وويلكن أن الديانة التوتمية قد انشعبت عنها ، وهى تناسخ الأرواح وحلولها فى غير أجسامها الأولى ، تتوقف هى نفسها على وجود الديانة التوتمية من قبل . فالأدنى إلى المعقول إذن أن يقال إن هذه العقيدة قد انشعبت عن التوتمية لا أن التوتمية قد انشعبت عنها .

وفضلا عن هذا كله فإن نظرية تيلور وويلكن تقوم

---

(١) انظر الفقرتين ٣ ، ٤ من الفصل السابق صفحات ٣١ — ٣٩ .

على فهم خاطئ للديانة التوتمية . فهى ترى أن التوتمية مظهر من مظاهر عبادة الحيوان والنبات . مع أنه قد ظهر لنا فى الفقرة الخامسة من الفصل السابق[1] أن التوتمية تختلف اختلافاً جوهرياً عن عبادة الحيوان والنبات . فأفراد العشيرة التوتمية لا يقفون حيال توتمهم كما يقف عابد الحيوان أو النبات حيال معبوده . فهذا يعد نفسه من طبيعة بشرية تختلف كل الاختلاف عن طبيعة معبوده ، ويعتبره نفسه شيئاً حقيراً إذا قيس بإلاهه ؛ على حين أن النظام التوتمى يجعل الإنسان نفسه من طبيعة توتمه . فالعلاقة بين أفراد العشيرة وفصيلة توتمها ليست علاقة عباد بآلهة ، بل علاقة أقرباء تربطهم بعضهم ببعض وشيجة الدم ولحمة النسب الوثيق . والتقديس الذى يوجه فى الديانة التوتمية إلى الحيوان أو النبات لا يوجه إليه لذاته ، وإنما يوجه إليه لأنه مظهر من مظاهر التوتم . ولذلك يشترك مع الحيوان أو النبات فى هذا التقديس جميع ما يرمز إلى التوتم أو يمثل مظهراً من مظاهره[2]. بل إن أفراد العشيرة أنفسهم يشاركون التوتم هذه القدسية لاشتراكهم معه فى طبيعته كما

---

(١) انظر صفحتى ٣٩ ، ٤٠.

(٢) انظر صفحات ٢١ — ٢٨ .

تقدم بيان ذلك فى الفقرة الرابعة من الفصل السابق[1]. ولو كانت التوتمية منشعبة عن عبادة أرواح الموتى للاعتقاد بحلولها فى أجسام بعض الحيوانات أو النباتات كما يذهب إلى ذلك تايلور وويلكن لما ظهرت فى الصورة التى وصفناها ، بل لظهرت فى الصورة التى تبادرت إلى ذهنيهما وهى عبادة الكائنات نفسها التى حلت فيها هذه الأرواح .

٢

نظرية جيفونس Jevons

التوتمية منشعبة عن عبادة مظاهر الطبيعة

ويذهب چيڤونس[2] إلى أن التوتمية قد انشعبت عن عبادة مظاهر الطبيعة . وذلك أن الإنسان البدائى ، تحت تأثير الخوف والرهبة من مظاهر الطبيعة من حيوان ونبات وجماد ، حرص على التقرب إلى بعضها ليتقى شرها ويضمن نفعها ، ويستدر

(١) انظر صفحات ٣٧ — ٣٩ .

(٢) V. Jevons : Introduction to the history of Religion, p. 96 et suiv.

عطفها عليه . ولم يكن ثمة وسيلة للتحالف وعقد الذمة غير وسيلة القرابة . فالقرابة وحدها هى التى كانت فى الشعوب البدائية تحقق التضامن والتكافل والأمن والسلام . فقد كان أفراد العشيرة الواحدة أولياء بعضهم لبعض لصلة القرابة التى كانت تجمع بينهم ، على حين أنهم كانوا ينظرون لغير أقربائهم نظرتهم إلى خصوم وأعداء . ولذلك اصطنع العقل البدائى صلة قرابة بينه وبين بعض مظاهر الطبيعة . ولم يقم هذه الصلة بين أفراد وأفراد ، وإنما أقامها بين العشائر الإنسانية من جهة والفصائل الحيوانية والنباتية والطبيعية من جهة أخرى . وذلك لأن العشيرة هى التى كان لها وجود دائم قوى فى العقلية البدائية ؛ أما الأفراد فلم يكن لهم وجود يعتد به . فنظر البدائى إلى عالم الحيوان والنبات والجماد نظرته إلى عالم الإنسان ، فلم يعتد بأفراد هذا العالم ، وإنما اعتد بفصائله وأنواعه ، وعمد إلى هذه الفصائل والأنواع فربطها بعشائره بوشيجة القرابة ولحمة النسب .

ولا تقل هذه النظرية فساداً عن النظرية السابقة : فهى تصور التوتمية على أنها ناشئة عن عمل إرادى قصد إليه

الأفراد لتحقيق غاية نفعية أو وقائية . وهذا لا يتفق فى شيء مع ما نعرفه عن نشأة النظم الاجتماعية . فعهدنا بهذه النظم أنها لا تنشأ عن عمل إرادى مقصود ، وإنما تنبعث فى صورة تلقائية وتخلقها طبيعة الاجتماع وظروف الحياة .

هذا إلى أنه لو كان الغرض من التوتمية أن يتقرب الإنسان إلى بعض مظاهر الطبيعة ليتقى شرها ويضمن نفعها ويستدر عطفها عليه ، لعقد هذه الصلة بينه وبين أكبر هذه المظاهر قوة وأشدها بطشاً وإثارة للرهبة والخوف فى نفس الإنسان ؛ مع أن الواقع أن معظم التواتم تتألف من نباتات وحيوانات ضعيفة لا ترهب ولا تخيف ولا سيطرة لها على حياة الإنسان .

ولو كان الهدف الذى تقصد إليه العشائر من التوتمية أن تكون وسيلة للإفادة من مظاهر الطبيعة ولاتقاء شرها ، لعملت كل عشيرة جهدها على أن تعقد هذه الرابطة مع أكبر عدد ممكن من هذه المظاهر ، حتى تضمن أكبر قدر من النفع ، ويزداد مبلغ اطمئنانها فى حياتها ، وتكثر وسائل وقايتها من الأخطار ؛ مع أن الواقع أن التوتمية كما ذكرنا ذلك فيما سبق ، تقوم على أساس أن كل عشيرة لا يكون لها إلا توتم واحد فحسب .

٣

نظرية دوركايم[1]

التوتمية ليست منشعبة عن ديانة أخرى
بل انشعبت عنها جميع الديانات الإنسانية
وهى تتمثل فى عبادة الأفراد لمجتمعهم

لاحظ دوركايم أن الكائنات التى يتجه إليها التقديس فى الديانة التوتمية ، سواء فى ذلك التوتم نفسه والرسوم التى تدل عليه ، تجمع بينها صفة مشتركة وهى أنها مظاهر للعشيرة نفسها ورموز تشير إليها . فالتوتم هو لقب العشيرة ، وطبيعته من طبيعتها ، والرسوم الخاصة به ترمز إليها . فالتقديس لا يتجه إذن إلى هذه الأشياء إلا لأنها رمز للعشيرة ؛ وبعبارة أخرى : إن تقديس هذه الأشياء هو فى حقيقة الأمر تقديس للعشيرة نفسها . فالتواتم ورسومها هى بمنزلة الأعلام التى تتخذها أممنا الحديثة رمزاً لها . فكما أن تقديسنا وتعظيمنا لعلم بلادنا هو فى حقيقة الأمر تقديس وتعظيم لما يرمز إليه هذا العلم ، أى تقديس لأمتنا ومجتمعنا ، كذلك كان شأن البدائيين حيال تواتمهم .

(١) V. Durkheim, op. cit.

فالإله الذى يتجه إليه التقديس فى الديانة التوتمية هو العشيرة نفسها أو المجتمع نفسه مرموزاً إليه ببعض رسوم وبعض حيوانات أو نباتات .

ويرى دوركايم أن هذا النظام قد انبعث من تلقاء نفسه من العقل الجمعى ، وأنه حقق فوائد اجتماعية ذات بال . فالحياة الاجتماعية لا تستقيم إلا إذا كان المجتمع ونظمه وأوامره ونواهيه موضع تقديس الأفراد وإجلالهم . والنظام التوتمى كان وسيلة لتمرين الأفراد وترويضهم على هذا التقديس والإجلال ، لتقوى آصرة ارتباطهم بمجتمعهم ، ويسلس قيادهم للحياة الاجتماعية ، وما تفرضه من نظم وتضعه من قواعد تتعارض فى كثير من مظاهرها مع أهواء الأفراد ورغباتهم . .

ولما كان دوركايم يرى أن التوتمية ديانة بالمعنى الدقيق لكلمة ديانة ، لأنها تقوم على التفرقة بين عالمين : عالم قدسى Sacré (التواتم وما يتصل إليها وكل ما هو من طبيعتها) ، وعالم عادي prophane ، وهذا هو قوام كل ديانة إنسانية فى نظره ، ويرى أنها تمثل أقدم ديانة إنسانية لارتباطها بأبسط تكوين اجتماعى وهو تكوين العشيرة ، فقد ذهب إلى أن

المجتمع نفسه كان أول إله عبده بنو الإنسان .

* * *

وهذه النظرية — على ما فيها من دقة وطرافة وعمق فى البحث — لا يمكن التسليم بجميع ما اشتملت عليه . فالآثار والنتائج الاجتماعية التى يرتبها دوركايم على الديانة التوتمية بحسب نظريته لا يمكن التسليم بها إلا إذا ثبت أن البدائيين كان لديهم الشعور بأن ما يقومون به حيال التوتم ورموزه هو تقديس للمجتمع الذى ينتمون إليه ؛ مع أن الذى يظهر من بحوث علماء الإثنوجرافيا أن البدائيين لم يكن لديهم شعور بمثل هذه الحقائق السامية ، وأن العقلية البدائية ما كانت لتستطيع أن تسمو إلى مثل هذه الآفاق فى التفكير .

ولا يمكن كذلك التسليم بما ذهب إليه دوركايم من أن التوتمية تمثل أقدم ديانة إنسانية . فالتوتمية كانت نظاماً دينياً لبعض شعوب بدائية اكتشفت فى صدر العصور الحديثة . صحيح أن هذه الشعوب قد ظلت أمداً طويلا بمعزل عن التيارات الحضارية الكبرى التى توالى ظهورها بين سكان القارات القديمة . ولكن لا يترتب على ذلك أنها سلمت من التطور ، وأفلتت من قانونه ، وظلت محافظة على أقدم نظام نشأت عليه . فالتطور

هو سنة الاجتماع وناموس الكائنات الحية على الإطلاق . ولا يمكن أن يفلت منه شعب مهما كان منعزلا عن الشعوب الأخرى . وحتى مع التسليم جدلا بأن التوتمية تمثل أقدم ديانة سارت عليها هذه الشعوب البدائية منذ نشأتها ، فإنه لا يوجد دليل يحمل على اليقين ولا على الظن بأنها كانت الديانة السائدة فى فاتحة الإنسانية وبجميع شعوبها على الإطلاق .

خاتمة

الشعوب البدائية تحكمها نظم دقيقة في مختلف شئون حياتها

ومما تقدم يبين أن كثيراً من المفكرين والباحثين قد وقعوا فى خطأ جسيم حينما ظنوا أن الشعوب البدائية حرة طليقة لا تخضع لنظام ولا يقيدها قانون ، أو أن نظمها وقوانينها ساذجة بسيطة تسيرها الغرائز وتحكمها النزعات الطبيعية فى الإنسان . فقد تبين لنا من دراستنا السابقة أن النظام التوتمى الذى يمثل نظاماً من أقدم النظم الإنسانية إن لم يكن أقدمها جميعاً ، وتسير عليه شعوب تعد من أكثر شعوب العالم بدائية و بعداً عن أسباب الحضارة ، يضع لجميع فروع الحياة نظماً وقواعد لا تقل فى دقتها وتعقيدها عن نظمنا الحاضرة إن لم تزد عن كثير منها فى معظم الشئون . فالإنسان حيثما يكون ، وفى مختلف مراحل التاريخ ، مدنى بطبعه ، أى لا يستطيع أن يحيا إلا فى مجتمع ؛ ولا تستقيم الحياة فى مجتمع ما إلا إذا خضعت أوضاعه جميعاً وخضع أفراده فى مختلف شئون حياتهم لما يختاره عقله الجمعى من نظم وقواعد وقوانين .

دكتور على عبد الواحد وافى

تاريخ دراسة الموضوع ومراجع البحث

أول كتاب ظهرت فيه كلمة توتم totem كتاب إنجليزى ألفهچون لنج John Long الذى كان يعمل ترجماناً فى شركة الهند Compagnie des Indes وطبع فى لندن سنة ١٧٩١ تحت عنوان « أسفار ورحلات لترجمان هندى

Voyages and Travels of an Indian Interpreter

وقد تضمن هذا الكتاب إشارات مقتضبة إلى هذه الديانة وما تشتمل عليه من عقائد وشعائر وما كان لها من أثر بين عشائر الهنود الحمر .

ومن ذلك الحين عكف العلماء على دراسة هذه الديانة وتحليل عناصرها ، والبحث عما تقوم عليه من أصول . ولكنهم ظلوا فى مبدأ أمرهم يظنون أنها مقصورة على السكان الأصليين لأمريكا ، وظلت بحوثهم قائمة على هذا الظن ، حتى كشف الرحالة الإنجليزى « جراى Grey » فى كتاب له ظهر سنة ١٨٤١. تحت عنوان « غربى أستراليا وشمالها الغربى » North-West and Western Australia أن الديانة نفسها منتشرة

بين السكان الأصليين لأستراليا . فاتسع بذلك نطاق بحوثهم ، وتكونت لديهم فكرة صحيحة عن مدى انتشار هذه الديانة ، وظهرت لهم منها أشكال جديدة لم تكن معروفة من قبل .

ثم تبين لهم فيما بعد أن لهذه الديانة رواسب وأشباهاً ونظائر فى كثير من ديانات العالم القديم نفسه وفى كثير من عادات شعوبه وتقاليدها . فقد كشف العلامة ماك — لينان Mac-Lenan فى مقالات نشرها فى مجلة Fortnightly Review فى أعدادها الصادرة من سنة ١٨٦٩ إلى سنة ١٨٧٩ عن هذه الرواسب والأشباه والنظائر فى كثير من ديانات العالم القديم ، وخاصة ديانات اليونان والرومان ؛ بل ذهب إلى أبعد من ذلك فقرر أن كل ما يتصل بتقديس الحيوان والنبات فى الديانات الإنسانية يرجع إلى أصل توتمى . وجاء من بعده العلامة روبرتسون سميث Robertson Smith فكشف فى بحوثه فى « القرابة والزواج عند العرب فى الجاهلية » وفى « ديانة الساميين » Kinship and Marriage in Early Arabia; The Religion of the Semites عن آثار الديانة التوتمية ورواسبها عند الشعوب السامية . — وظهر لكثير من المشتغلين بدراسة الحضارة المصرية القديمة Egyptologucs عدة رواسب من التوتمية

فى عقائد قدماء المصريين. وجاء من بعد هؤلاء جميعاً العلامة فريزر Sir James Frazer فكشف فى كتابه الخالد « الغصن الذهبي» The Golden Bough عن الآثار التى تركتها الديانة التوتمية فى المعتقدات والعادات الشعبية الأوروبية (الفولكلور) Folk-lore . وكشف كثير من الباحثين عن عدة رواسب من التوتمية فى شمال إفريقيا ووسطها وشرقها وفى مدغشقر وجزر الملايو وبولينزيا وأندونيسيا والفيليبين والهند الصينية والصين والهند وفى مواطن أخرى كثيرة فى الدنيا القديمة .

وقد اتسع نطاق هذه الدراسات نوعاً ما بفضل البحوث التى قام بها المكتب الأمريكى لدراسة الشعوب Bureau American d'Ethnologie وبفضل البحوث التى قام بها العلامة الأمريكى لويس مرجان Lewis Mogan فى كتابه الخالد عن «المجتمعات البدائية» Ancient Society الذى ظهر سنة ١٨٧٧ . ونقول « نوعاً ما » لأن هذه الدراسات كانت إلى ذلك الحين ناقصة من كثير من الوجوه ؛ وذلك أنها لم تعرض إلا لطائفة محدودة من عشائر السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا ، ولم تعالج إلا بعض مظاهر من الديانة التوتمية . وقد جمع العلامة فريزر خلاصة هذه البحوث فى مؤلف صغير ظهر سنة ١٨٨٧

تحت عنوان « التوتمية » Totemism اقتصر فيه على وصف هذه المعتقدات بدون أن يحاول شرحها وتحليلها .

وأول دراسة مفصلة وافية لهذه الديانة هى الدراسة التى قام بها بلدوين سبنسر وجيلين Baldwin Spencer and Gillen فقد أقام هذان الباحثان مدة طويلة بين عشائر السكان الأصليين لوسط أستراليا وشمالها ، ودرسا نظمها الاجتماعية القائمة على الديانة التوتمية دراسة عميقة ، وضمنا دراستهما هذه كتابين كبيرين : ظهر أولهما بعنوان « قبائل السكان الأصليين لوسط أستراليا (The Native Tribes of Central Australia) ؛ وظهر الآخر بعنوان « قبائل السكان الأصليين لشمال أستراليا الوسطى The Northern Tribes of Central Australia

وجاء من بعدهما العلامة كارل ستريهلو Carl Strehlow فأقام مثلهما مدة طويلة بين العشائر الأسترالية الشمالية ، وأجاد لغاتها ، وألف فى نظمها الاجتماعية القائمة على الديانة التوتمية بحوثاً قيمة دقيقة جاءت مؤيدة فى كثير من مواطنها لما وصل إليه سبنسر وجيلين فى كتابيهما السابق ذكرهما .

وما قام به سبنسر وجيلين وستريهلو من دراسات مفصلة للقبائل الأسترالية الشمالية قام بمثله الإنجليزيان فيزن وهويت

Fison and Howitt بصدد القبائل الجنوبية . وقد ظهرت خلاصة هذه الدراسات فى كتابهما عن كاميلاروا وكرنى Kamilaroi and Kurnai الذى ظهر سنة ١٨٨٠ وفى كتاب هويت عن السكان الأصليين لجنوب أستراليا The Native Tribes of South Australia الذي ظهر سنة سنة ١٩٠٤ وفى كتب أخرى كثيرة له .

وفى ضوء هذه الدراسات الوافية أعاد فريزر النظر فى كتابه الأول عن التوتمية ، فأصلح ما كان فيه من خطأ ، وأكمل ما كان فيه من نقص ، ووسع نطاق بحوثه حتى شملت معظم مظاهر الديانة التوتمية وما قام عليها من نظم اجتماعية ، وعنى بشرح هذه المظاهر والنظم وبيان أصولها ووظائفها والعلاقات التى تربطها بعضها ببعض وأخرج كتابه فى هذا الوضع الكامل سنة ١٩١٠ فى أربع مجلدات كبيرة تحت عنوان « التوتمية والإجزوجامية »[1] Totemism and Exogamy. ويعد الآن هذا الكتاب أهم مرجع للباحثين فى الديانة التوتمية وما تنطوى عليه من

---

(١) الإجزوجامية هى النظام الذى يحرم بمقتضاه على رجال العشيرة أن يتزوجوا نساء من داخل عشيرتهم كما ذكرنا ذلك بالتفصيل فى الفقرة السابعة من الفصل الأول (انظر صفحة ٥٣ وتوابعها) .

عقائد ويقوم عليها من نظم وأوضاع .

وجاءت من بعد هؤلاء جميعاً « المدرسة الاجتماعية الفرنسية » L'Ecole Sociologique Française فعنيت بدراسة هذه الديانة عناية كبيرة ، وحللت عناصرها تحليلا دقيقاً ، وكشفت عن كثير من حقائقها الهامة التى خفيت عن أنظار الباحثين من قبلها ، ووضحت العلاقة بينها وبين أصول الحضارات والنظم الإنسانية على العموم . ويرجع أكبر قسط من الفضل فيما وصلت إليه بحوث هذه المدرسة من شأو رفيع فى هذه الميادين إلى الدراسات التى قام بها رئيسها العلامة دوركايم Durkheim فى كتابه الخالد عن « الأصول الأولى للحياة الدينية ممثلة فى النظم التوتمية الأسترالية » Les Formes Elémentaires de la Vie Religieuse. Le Système totémique en Australie وقد ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩١٢ ، ثم أعيد طبعه بعد وفاة مؤلفه سنة ١٩٢٥ فى نحو ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير .

وعلى غرار دوركايم ألف كثير من أعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية فى الديانة التوتمية ونظمها وما يتصل بها كتباً قيمة من أهمها مؤلفات ليفى برول وموس وداڤى الآتى بيانها :

Levy-Brull : Les Fonctions mentales dans les Sociétés Primitives.

Levy-Bruhl : La Mentalité Primitive.

Levy-Bruhl : La Mythologie Primitive.

Mauss (Marcel) : Essai sur le Don, (forme archaîque de l'échange) dans l'Année Sociologique, 1925.

Davy : La Foi Jurée.

وفى سنة ١٩٢٥ ظهر لهربارت بازيدو Herbert Basedow كتاب قيم كبير عن السكان الأصليين لأستراليا عرض فيه لكثير من الطقوس التوتمية الأستراليين The Australian aboriginal

وفى سنة ١٩٢٩ ظهر لموريس بيسون Maurice Besson كتيب عن التوتمية Le Totémisme لخص فيه كثيراً من دراسات الباحثين من قبل فى هذا الموضوع .

* *

وقد اعتمدنا فى دراستنا لهذه الديانة وما يتصل بها على المؤلفات السابق ذكرها ، وخاصة مؤلفات فريزر ودوركايم وليفى برول ودافى وموريس بيسون .

دكتور على عبد الواحد وافى

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

فهرس اللوحات

دار المعارف للطباعة والنشر

شفيق نجيب متري وشركاه

أسست سنة ١٨٩٠

الإدارة العامة : ٥ شارع مسبيرو بالقاهرة

تليفون رقم ٨١٢١٦٨ (عدة خطوط)

س . ت ٥٢١٢١